سالم
موقع التفريغ
للدروس العلمية والبحوث الشرعية
www.attafreegh.com

شرحُ

القواعد الأربع

للإمام محمد بن عبد الوهاب

للشيخ

عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر

حفظه الله تعالىٰ

النُّسخة الإلكترونيَّة (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الدرس الأول (١٩/ ١٢/ ١٤٢٨)

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسانا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضلّ له ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنّ محمَّدًا عبده ورسوله صلَّىٰ الله وسلَّم عليه وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الإمام المجدِّد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ في القواعد الأربع:

[المتن]

بسم الله الرحمٰن الرحيم

أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم أنْ يتولاكَ في الدُّنيا والآخرة، وأنْ يجعلكَ مبارَكًا أينما كنتَ، وأن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَرَ، وإذا أذنبَ استغفر. فإنَّ هؤلاء الثَّلاث عنوان السَّعادة.

[الشرح]

الإمام شيخ الإسلام محمَّد بن عبد الوهَّاب - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ - كان ناصحًا أعظم نصيحة للنَّاس في بيان التَّوحيد الذي خُلقوا لأجله وأُوجدوا لتحقيقه، والتَّحذير من الشِّرك بالله ﷻ الذي هو أعظم الآثام وأكبر المحرَّمات، وتنوّعت - رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ- مصنَّفاتُه في بيان التَّوحيد وتقريره، والتَّحذير من الشِّرك وإبطاله وبيان فساده وبطلانِ شبه أهله، فألَّف في ذلك مؤلَّفات كثيرة نُصحًا للأمَّة وبيانًا للنّاس وإعذارا وإنذارا، فكان رَحِمَهُ اللَّهُ ناصحًا معلِّمًا مربِّيًا موجِّها متمسِّكًا بكتاب الله -جلَّ وعلا- وسنَّة رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وكان رَحِمَهُ اللَّهُ في بياناته وتقريراته للتَّوحيد والسُّنَّة ينطلق في ذلك كلّه من كتاب الله جلَّ وعلا وسنَّة رسوله ﷺ، سائرًا في ذلك علىٰ سَنن الصَّحابة الكرام وتابعيهم بإحسان، فهو ماض علىٰ الطَّريق وعلىٰ الأثر في الاقتفاء والاتِّباع لكتاب الله جلَّ وعلا وسنَّة رسوله ﷺ، ولهذا كانت كتبه كلُّها قائمة علىٰ الدَّليل؛ قال الله قال رسوله ﷺ، لا يأتي بشيء من قِبل نفسه، أو يُنشئ أمرا تكلُّفًا من عنده حاشاه وحاشا أئمَّة المسلمين وعلماء السُّنَّة أن يكونوا كذلك؛ بل كان رَحِمَهُ اللَّهُ في تقريراته وتأصيلاته وتقعيداته منطلقًا في ذلك كلِّه من كتاب الله جلَّ وعلا وسنَّة رسوله ﷺ، وقد تنوَّعت مصنَّفاته رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ في بيان التَّوحيد وتقريره، والتَّأصيل له، وجمع الشَّواهد والدَّلائل عليه من كتاب الله جلَّ وعلا وسنَّة نبيِّه ﷺ.

وكان من عنايته رَحِمَهُ اللَّهُ بهٰذا الباب العظيم هٰذه الرِّسالة الصَّغيرة الحجم الكبيرة الفائدة، التي لا يستغني عنها كلُّ مسلم، فهي بحقّ رسالة عظيمة وكتيِّبٌ قيِّم في باب هو أعظم الأبواب، وقد جمع في هٰذه الرِّسالة قواعد أربع جمعها رَحِمَهُ اللَّهُ وذكر أدلَّتها من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ، فكان من ضبط هٰذه القواعد وفهمها لا يلتبس عليه الأمر ولا تشتبه عليه الأمور، ولا تنطلي عليه أضاليل أهل الضَّلال وأباطيل أهل

الباطل، فهي قواعد أربع كبار عظيمة لا غنىٰ لأيِّ مسلم عنها في باب معرفة التَّوحيد والشِّرك، والتَّمييز بين الحقّ الذي هو التَّوحيد والباطل الذي هو الشِّرك، وأصبحت معرفة التَّمييز بين التَّوحيد والشِّرك ضرورة ملحَّة ولاسيَّما في هٰذه الأزمنة المتأخِّرة التي لُبِّس علىٰ كثير من النَّاس في مفهوم التَّوحيد، وأُدخلت عليهم صورٌ من الشِّرك وأبوابٌ منه علىٰ أنَّها ليست مضادَّة للتَّوحيد ولا منافية له، فمن أعظم الضَّرورات وأشدّ الحاجات التي ينبغي علىٰ كلّ مسلم ومسلمة أن يُعنىٰ بها أن يعرف هٰذه القواعد العظيمة الأربعة الكبار التي قرَّرها رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ ليَميز بها المسلم بين الشِّرك والتَّوحيد، وحتَّىٰ يكون المسلم علىٰ بصيرة في دينه وعلىٰ بيِّنة من أمره، وعلىٰ نور من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وسنَّة نبيِّه صلوات الله وسلامه عليه.

وقد بدأ هٰذه الرِّسالة كعادته رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ في كتبه عمومًا ورسائله بالدُّعاء لمن يطّلع علىٰ كتابه ويقرأ رسالته، ويدعو رَحِمَهُ اللَّهُ بدعوات عظيمة؛ دعواتٍ جامعة تجمع للمسلم خيري الدُّنيا والآخرة، وهٰذا كذلك من نصحه رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ ومن شفقته علىٰ النَّاس عمومًا، ليتبصَّروا في دينهم وليعرفوا الحقَّ الذي خُلقوا لأجله وأوجدوا لتحقيقه وليكونوا علىٰ حذر من الضَّلال والباطل.

بدأ هٰذه الرِّسالة القواعد الأربع بقوله: (بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم) وهٰذه كلمة يُبدأ بها في الدُّروس والمقالات والكتب، وهي مفتاح يُبدأ به طلبًا لعون الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وتوفيقه وتسديده، فقولك: (بسم الله الرّحمٰن الرّحيم) هٰذه كلمة استعانة، تبدأ كلامك أو كتابك أو دخولك أو خروجك أو غير ذلك ممَّا بسملت لأجله تبدؤه بالبسملة طالبًا بذلك عون الله جلَّ وعلا، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: الباء في (بسم الله) باء الاستعانة أي أبدأ مستعينًا بالله وطالبًا عونه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ متيمِّنا وطالبًا البركة بذكر اسمه جلَّ وعلا.

وقولك: (بسم الله) الجار والمجرور هنا متعلِّق بمحذوف -محذوف مقدَّر- يُقدَّر له فعل بحسب حال الفاعل، إن كان خروجًا فيقدَّر: أخرج باسم الله، وإن كان دخولًا: أدخل باسم الله، وإن كان كتابة: أكتب باسم الله، وإن كان قراءة أقرأ: باسم الله، ففي البسملة الجار والمجرور في (بسم الله) متعلِّق بمحذوف مقدَّر يُقدَّر بحسب حال الفاعل.

قال: (بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم)، وفي (بسم الله الرَّحمٰن الرَّحيم) اجتمعت ثلاث أسماء حسنىٰ لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، أوَّلها اسمه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ (الله) معناه كما قال ابن عبّاس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «أي ذو الألوهيَّة والعبوديَّة علىٰ خلقه أجمعين.»[1] فاسمه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ (الله) يدلُّ علىٰ أوصاف الكمال ونعوت الجلال وأوصاف العظمة التي استحقّ بها تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ أن يُؤْلَه وأن يُعبد وأن يُخضع له ويجلَّ جلَّ وعلا، ودالٌّ أيضًا علىٰ العبوديَّة التي هي وصف العبد وأنَّ الواجب علىٰ العبد أن يكون عبدا لله ذليلًا له خاضعًا لجنابه منكسرًا بين يديه قائمًا بطاعته وأمره جلَّ وعلا، محقِّقًا العبوديَّة التي خُلق لأجلها وأُوجِد لتحقيقها، و(الرَّحمٰن

(١) تفسير الطبري (ج١ ص١٢٣).

الرَّحيم) اسمان دالَّان علىٰ ثبوت الرَّحمة صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، واسمه جلَّ وعلا (الرَّحمـٰن) يدلُّ علىٰ صفة الرَّحمة القائمة به سبحانه، واسمه (الرَّحيم) دالٌّ علىٰ تعلُّقها بالمرحومين كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٣]، فهٰذه أسماء ثلاثة عظيمة جاءت في البسملة، وبدأ بها رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ مؤلِّفه تأسِّيًا بكتاب الله جلَّ وعلا، وتأسِّيًا بنبيِّنا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في مراسلاته صلوات الله وسلامه عليه، وتأسِّيًا بأئمَّة المسلمين وعلماء الإسلام في أوَّل الزَّمان وآخره.

قال: (أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم أنْ يتولَّاكَ في الدُّنيا والآخرة)، (أسألُ اللهَ الكريم) أي أطلبُ منه جلَّ وعلا، (الكريم) اسم من أسماء الله جلَّ وعلا وهو دالٌّ علىٰ صفة الكرم، والكرم هٰذه الصِّفة تعني اجتماع صفات الخير وكوامن الصِّفات وجوامع النُّعوت، ولهذا فإنَّ هٰذا الاسم من الأسماء التي تدلُّ علىٰ أوصافٍ عظيمة لا علىٰ معنىٰ مفرد، ونعوت جليلة كثيرة ثابتة للربِّ الكريم سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، قال: (أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم) ذكر هنا ربوبيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والرُّبوبيَّة هي الملك والخلق والتَّصرُّف والتَّدبير في هٰذه الكائنات، وخصَّ بالذِّكر هنا ربوبيَّة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ للعرش؛ لأنَّه أعظم المخلوقات وأكبرها، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وصف عرشه بالعظمة في القرآن الكريم، وصفه بالكرم ووصفه بالمجد، وجاءت أيضًا أوصاف كثيرة له في سنَّة النَّبيّ الكريم صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

فذكر المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ هنا ربوبيَّة الله عَزَّ وَجَلَّ للعرش، خصَّه بالذِّكر؛ لأنَّه أكبر المخلوقات وأعظم المخلوقات.

ويأتي في بعض الأذكار والدَّعوات الثَّابتة عن النَّبيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر ربوبيَّة الله للعرش ويخصُّه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بالذِّكر، كما في الذِّكر الذي يُقال عند الكرب: «لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ العَظِيمُ الحَلِيمُ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ العَرْشِ العَظِيمِ، لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَرَبُّ الأَرْضِ، وَرَبُّ العَرْشِ الكَرِيمِ»[1]. وكما أيضًا في الدُّعاء الذي يقال عند النَّوم: «اللهُمَّ رَبَّ السَّمَاوَاتِ وَرَبَّ الْأَرْضِ وَرَبَّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ، رَبَّنَا وَرَبَّ كُلِّ شَيْءٍ، فَالِقَ الْحَبِّ وَالنَّوَىٰ، وَمُنْزِلَ التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْفُرْقَانِ» إلىٰ آخر الدُّعاء[2]، فيأتي مثل ذلك في دعوات النَّبيِّ الكريم صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

والعرش مخلوق من مخلوقات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ العظيمة، وهو أكبر المخلوقات وأعظم المخلوقات، ولهذا لمَّا أراد عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في تسبيحه لله أن يذكر أثقل الأوزان، ذكر العرش قال: «سُبْحَانَ اللهِ وَبِحَمْدِهِ، عَدَدَ خَلْقِهِ وَرِضَا نَفْسِهِ وَزِنَةَ عَرْشِهِ وَمِدَادَ كَلِمَاتِهِ»[3] ذكر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ زِنَة العرش؛ لأنَّ العرش أثقل المخلوقات وأكبر المخلوقات وأعظم المخلوقات، فالعرش مخلوق لله جلَّ وعلا خلقه سبحانه وأوجده من العدم، وشاء جلَّ وعلا أن يستوي عليه، أي يعلو ويرتفع عليه علوًّا وارتفاعًا يليق

(١) البخاري (ح٦٥٤٣) ومسلم (ح٢٧٣٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) مسلم (ح٢٧١٣) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) مسلم (ح٢٧٢٦) من حديث أم المؤمنين جويرية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

بجلاله وكماله وعظمته - سبحانه- كما أخبر بذلك عن نفسه في كتابه في مواضع من القرآن، في قوله جلَّ وعلا: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾[1] وقوله جلَّ وعلا: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ [طه:٥]، وكم هو جميل بالمؤمن في دعائه لله جلَّ وعلا ومناجاته له أن يذكر عظمة ربِّه وكماله وكبريائه، وعندما تناجي الله ﷻ وتدعوه متذكِّرًا ربوبيَّته ولاسيَّما ربوبيَّته جلَّ وعلا للعرش العظيم، وتذكر عظمة هٰذا المخلوق وكبره وضآلة المخلوقات الأخرىٰ بالنِّسبة إليه، مما يعينك علىٰ ذكر عظمة الله جلَّ وعلا وكبريائه، وأنّ هٰذا الكون الذي تحت العرش ودون العرش كلُّه مسخَّر ومدبَّر لله جلَّ وعلا، يصرِّفه كيف يشاء، ويقضي فيه بما يريد، لا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لقضائه، وهو ﷻ فوق عرشه المجيد عليٌّ عليه يقضي بما يشاء، ويحكم بما يريد، لا رادَّ لحكمه ولا معقِّب لقضائه، كلّ يوم هو في شأن، يحيي ويميت، ويعزُّ ويذل ويغني ويقني، ويُضحك ويُبكي، ويُصِحُّ ويُمرض.. إلىٰ غير ذلك من الأمور التي هي تصريفه وتدبيره لمملكته جلَّ وعلا، لا شريك له في التَّدبير، ولا شريك له في التَّسخير والقضاء، الأمر أمره، والقضاء قضاؤه، والحكم حكمه جلَّ وعلا، فيذكر العبد عظمة الله وجلاله وكماله وربوبيَّته، ويجعل ذلك وسيلة له إلىٰ الله جلَّ وعلا بين يدي دعائه في مناجاته لله ومناداته له جلَّ وعلا، ولهذا قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أسألُ اللهَ الكريم ربّ العرش العظيم)، يحتمل قوله: (العظيم) أنَّ المراد بالعظيم صفة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ويحتمل أن يكون صفة للعرش، وكلٌّ منهما حقّ، فالله ﷻ العظيم، ومن أسمائه الحسنىٰ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ العظيم، وقد خُتمت أعظم أية في القرآن الكريم، وهي آية الكرسي بهٰذا الاسم، وهو (العليُّ العظيم)، فالعظيم اسم من أسماء الله، والعظيم صفة من صفات العرش، فيحتمل هٰذا ويحتمل ذاك.

(أسألُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيمَ) فيكون (العظيم) صفة لله جلَّ وعلا، (أسألُ اللهَ الكريمَ ربَّ العرشِ العظيمِ) ويكون (العظيم) بهذا صفة للعرش.

قال: (أنْ يتولَّاكَ في الدُّنيا والآخرة) هٰذا هو المطلوب، وما قبله وسيلة بين يديه، المطلوب قال: (أنْ يتولَّاكَ في الدُّنيا والآخرة) أي أن يكون وليًّا لك في دنياك وأخراك، قال الله تَعَالىٰ: ﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ﴾ [البقرة:٢٥٧]، (أنْ يتولَّاكَ) أي بحفظه وتوفيقه وتسديده، وعونه لك علىٰ طاعته وإخراجه لك من الظُّلمات إلىٰ النُّور، وتوصيلك في دينك والحقِّ الذي خُلقت لأجله ووجِدت لتحقيقه، وأن يثبِّتك علىٰ هٰذا الحقّ وأن يعيذك من الضَّلال وسبل الغواية كلُّ ذلك يتناوله قوله: (أسألُ اللهَ ... أنْ يتولَّاكَ في الدُّنيا)، فتولِّي الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في الدُّنيا بحفظه في هٰذه الدُّنيا من مضلَّات الفتن وتثبيته لعبده علىٰ الاستقامة والحقّ والهدىٰ، وعلىٰ صراط الله المستقيم، إلىٰ أن يتوفَّاه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وهو عنه راضٍ.

قال: (والآخرة)؛ (أنْ يتولَّاكَ في الدُّنيا والآخرة) **وتولِّي العبد** وتولِّي الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لعبده في الآخرة يكون بحفظه من أهوالها وشدائدها، ويكون بإنقاذه وإنجائه من النَّار ودخولها، وتوفيقه له بدخول الجنَّة

---

(١) وردت هذه الآية في القرآن في ستّ مواضع: الأعراف:٥٤، يونس:٣، الرعد:٢، الفرقان:٥٩، السجدة:٤، الحديد:٤.

والفوز بنعيمها، وأن يكرمه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بأعظم نعمة وأجلِّ منَّة وهي أن يرىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وهي أكبر المنن، فكلُّ ذلك داخل في قوله رَحِمَهُ اللهُ تَعَالىٰ: (والآخرة) يعني أن يتولَّاك تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في الآخرة بأن يكون وليًّا لك بالحفظ والتَّوفيق والتَّسديد والعون إلىٰ غير ذلك.

قال: (وأنْ يجعلكَ مبارَكًا أينما كنتَ) وهٰذه دعوة من أعظم الدَّعوات وأجلِّها وأفخمها وأكبرها، قد قال الله تَعَالىٰ في ذكر نبيِّه عيسىٰ: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ [مريم:٣١]، ولا يكون الإنسان مباركًا أينما كان إلَّا إذا كان في مجالسه كلِّها صالحًا مصلحًا، صالحًا في نفسه ليس منه شرّ ولا أذىٰ ولا إفساد ولا نحو ذلك، وأن يكون مصلحًا بحيث أنَّه في كلِّ مجلس من مجالسه يُسمَع منه الخير، تُسمع منه الكلمة الطيِّبة والموعظة الحسنة والتَّنبيه النَّافع.. ونحو ذلك، ولهذا ذكر ابن القيِّم رَحِمَهُ اللهُ في بعض كتبه وأظنُّه ذكر ذلك في بعض كتبه في الرِّسالة التَّبوكية، قال: لا يكون العبد مباركًا أينما كان إلّا إذا كان في كلّ مجلس يجلسه يكون فيه نفعٌ للنَّاس وبهذا يكون مباركًا أينما كان. أي مكان حلّ وفي أيّ موضع نزل، فهو أينما كان يُنتفع به، مثله كمثل الغيث أينما حلّ نزل، قال: ﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾ وهٰذا يتناول أن يكون العبد مباركًا أيضًا في نفسه وفي ماله ورزقه وعمله وبيته وحاله وشؤونه، قال: (وأنْ يجعلكَ مبارَكًا أينما كنتَ).

(وأن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَر، وإذا أذنبَ استغفر) دعا بهٰذه الأمور الثَّلاثة العظيمة التي جمعت الخير كلَّه والسَّعادة برمَّتها.

ولهذا قال رَحِمَهُ اللهُ في خاتمة هٰذه الدَّعوة مبيِّنا مكانتها وعظم شأنها، قال: (فإنّ هؤلاء الثَّلاث عنوان السَّعادة.) أي أنّ السَّعادة اجتمعت في هٰذه الثَّلاث، فإذا وُجدت هٰذه الأمور الثَّلاثة في العبد فإنَّ السَّعادة اجتمعت فيه وتحقَّقت فيه ونالها بأعلىٰ صورها وأبهىٰ حُللها.

والسَّعادة من أعظم المطالب التي يسعىٰ النَّاس لتحقيقها وتُعقد المؤتمرات والنّدوات والمجالس وتكتب المؤلَّفات لطلب السَّعادة، وليس أحد من النَّاس إلّا ويريد لنفسه السَّعادة حتّىٰ الذين يباشرون الفساد ويتعاطون أمور الانحراف يظنُّون أنَّها تجلب لهم سعادة، وأنَّ السَّعادة تتحقَّق لهم بتلك المسالك التي هي في الحقيقة مهالك لهم ومضارٌّ لهم في دنياهم وأخراهم، فالسَّعادة لا تُنال إلّا بتحقيق هٰذه الأوصاف الثَّلاث التي ذكرها رَحِمَهُ اللهُ في هذه الدَّعوة المباركة العظيمة، لا تُنال إلّا بهٰذه الأوصاف الثّلاث: الشُّكر والصَّبر والاستغفار، فهٰذه الأمور الثَّلاث إذا اجتمعت في العبد اجتمعت فيه السَّعادة وتحقَّقت له.

قال: (أسألُ اللهَ ... أن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَر، وإذا أذنبَ استغفر.) ولو تأمَّلت تجد أنَّ أحوال العبد في هٰذه الحياة الدُّنيا لا تخرج عن هٰذه الأمور الثَّلاث:

- إمَّا أن يكون مبتلىٰ بمصيبة.
- أو يكون ممتن عليه بنعمة ومنَّة.
- أو أن يكون واقعًا في ذنب.

لا تخرج أحوال العبد في حياته عن هٰذه الأمور الثَّلاث: إمّا مبتلىٰ بمصيبة، أو منعم عليه بنعمة وممَّا

يدخل في النِّعمة نعمة الدِّين هي أعظم النِّعم بأن يوفَّق للصَّلاة والصِّيام وطلب العلم وبرّ الوالدين وصلة الأرحام هٰذه أعظم النِّعم، أو أن يكون قد وقع في ذنب، فالعبد لا يخرج في حياته عن هٰذه الأمور الثَّلاث، إمَّا مبتلىٰ بمصاب أو منعم عليه بنعمة أو واقع في ذنب، لا يخرج عن هٰذه الأمور الثَّلاثة.

والواجب علىٰ العبد أن يجاهد نفسه مجاهدة تامَّة علىٰ أن يكون عند البلاء من الصَّابرين، وعند النِّعم من الشَّاكرين للمنعم ﷻ، وعند وقوعه في الذُّنوب من المستغفرين، فإذا كان كذلك قد جمع لنفسه الخير كلَّه، وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ، إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ، فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ، صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»[1] هكذا قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، بدأ أوَّل الحديث بقوله: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ» ثم قال فيه: «وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ» فالمؤمن عند المصيبة صابر، وعند النِّعمة شاكر، في المصائب يفوز بثواب الصَّابرين، وفي النِّعم يفوز بثواب الشَّاكرين، فهو فائز في كلا الحالين، في مصائبه فائز وفي نعمه فائز، في مصائبه فائز بثواب الصَّابرين، وفي نعمه فائز بثواب الشَّاكرين لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

والأمر الثَّالث قال: (وإذا أذنبَ استغفر) أي إذا وقع في الذَّنب بادر إلىٰ الاستغفار إلىٰ الله -جلَّ وعلا-، هو يعلم أنَّ الله ﷻ يغفر الذُّنوب ويعفو عن السَّيِّئات ولا يتعاظمه -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- ذنب من أن يغفره، ولهذا لا يقنط من رحمة الله، ولا ييأس من روح الله مهما كان ذنبه ومهما عظم جرمه فإنَّه يبادر بالأوبة والرُّجوع إلىٰ الله جلَّ وعلا، وقد ذكر النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قصَّة العبد الذي أذنب ذنبًا ثم قال: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي ذَنْبِي. «قال الله: أَذْنَبَ عَبْدِي ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ» ثم عاد العبد للذَّنب ثانية واستغفر قال: «عَبْدِي أَذْنَبَ ذَنْبًا، فَعَلِمَ أَنَّ لَهُ رَبًّا يَغْفِرُ الذَّنْبَ، وَيَأْخُذُ بِالذَّنْبِ» وتكررت من العبد ثم قال في تمام الحديث: «اعْمَلْ مَا شِئْتَ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكَ»[2] أي ما دمت علىٰ هٰذه الحال ملازمًا للاستغفار مجاهدًا نفسك علىٰ أن لا تقع في المعصية وأن لا تقع في الخطيئة وإذا بدر منك زلل أو وقعت في خطأ بادرت إلىٰ الاستغفار، ما دمت علىٰ هٰذه الحال فأنت مغفور لك، وقد قال ﷺ: «كُلُّ بَنِي آدَمَ خَطَّاءٌ، وَخَيْرُ الْخَطَّائِينَ التَّوَّابُونَ»[3] ابن آدم ليس معصومًا، ابن آدم خطَّاء؛ لكن له ربٌّ يغفر ﷻ ويتجاوز ويصفح ﷻ، ولهذا إذا وقع العبد في ذنب جرَّته إليه نفسه الضَّعيفة ودعاه إليه الشَّيطان، أو جرَّه إليه قُرناء السُّوء وخلطاء الفساد، أو أغوته نفسه للوقوع فيه، عليه أن يعلم فورًا أنَّ له ربًّا يغفر الذَّنب ويتجاوز ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ [الزمر]، فلا يزال العبد بخير ما دام يعلم أنَّ له ربًّا يغفر ويتجاوز ويصفح ﷻ، وأمَّا ابن آدم فضعيف وكثير الخطأ والزَّلل، ودواعي الخطأ كثيرة جدًّا، ليس العجب ممَّن هلك كيف هلك، ولكن العجب ممَّن نجا كيف

---

(١) مسلم (ح٢٩٩٩) من حديث صهيب رضي الله عنه.

(٢) البخاري (ح٧٥٠٧)، ومسلم (ح٢٧٥٨) واللفظ له من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) الترمذي (ح٢٤٩٩)، وابن ماجه (ح٤٢٥١) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه. وقال الألباني رحمه الله: حسن.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

نجا، الأمور التي تجرُّ الإنسان إلىٰ الخطأ كثيرة جدًّا؛ لكن لا يزال العبد بخير ما دام يعلم أنَّ له ربًّا يغفر، ولهذا لا يزال العبد يجاهد نفسه علىٰ البعد عن الذُّنوب وعدم الوقوع فيها، وإذا انفلتت نفسه ووقع في زلَّة أو وقع في خطيئة بادر إلىٰ الاستغفار، ومِن عظيم حبّ الله جلَّ وعلا للاستغفار والمستغفرين قال ﷻ في الحديث القدسي: «**لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ، فَيَسْتَغْفِرُونَ اللهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ**»،[1] ولهذا ربَّما كانت بعض الذُّنوب علىٰ الإنسان خيرٌ له؛ لأنَّها تفتح عليه باب ندم عظيم وباب استغفار كثير ربَّما بدون هٰذا الذَّنب يقلُّ استغفاره؛ لكنَّه يقع في ذنب وزلَّة، ثمَّ يقع في قلبه حياء عظيم من الله ﷻ ومراقبة لله وألم وندم علىٰ ما وقع فيه من ذنب وخطيئة فيكثر علىٰ لسانه الاستغفار كثرة ربَّما لا تكثر علىٰ لسانه لولا أنَّه وقع في هٰذا الذَّنب الذي ابتلي به، ولهذا لا يزال العبد بخير ما دام أنَّه إذا أذنب استغفر، ولهذا لاحظ الدَّعوة قال: (**وأن يجعلَكَ ممّن: إذا أُعطيَ شَكَرَ، وإذا ابتُلي صبَرَ، وإذا أذنبَ استغفر**) والذَّنب لابدَّ منه، ابن آدم لابدّ أن يقع في الذَّنب، وذنوب الإنسان كثيرة؛ لكن ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار، ينبغي أن يكون العبد كثير الاستغفار، وقد كان سيِّد ولد آدم أكثر النَّاس استغفارًا، وليس في عباد الله أكثر استغفارًا من رسول الله ﷺ، وقد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؛ لكنَّه مع ذلك كلِّه أكثر النَّاس استغفارًا حتىٰ قال أبو هريرة رضي الله عنه: (**مَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَكْثَرَ أَنْ يَقُولَ: أَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ**)[2]. وقد رأىٰ أبو هريرة عبّاد الصَّحابة وخيار الأمَّة وأكثر النَّاس استغفارًا وما رأىٰ في ذلك الجيل أكثر من النَّبيّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ملازمةً للاستغفار، فكان عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ملازمًا للاستغفار في حياته كلِّها، حتَّىٰ أنَّه ختم حياته كلَّها بالاستغفار كما جاء في حديث أمّ المؤمنين عائشة قالت: مات ﷺ بين صدري ونحري وهو يقول: «**اللّهمَّ اغفر لي، وألحقني بالرَّفيق الأعلىٰ**»[3] كانت هٰذه من آخر كلماته التي فارق عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بها الدُّنيا.

الشَّاهد أنَّ العبد تتحقَّق له السَّعادة إذا اجتمعت فيه هٰذه الخصال العظيمة ألا وهي: الصَّبر والشُّكر والاستغفار، ولعلَّ في هٰذه الدَّعوة العظيمة المباركة التي دعا بها المصنِّف رحمه الله لك أن تكون فاتحة باب لك أن تعتني بهٰذه الأمور الثَّلاث التي عنوان السَّعادة: الصَّبر والشُّكر والاستغفار، بحيث تكون مجاهدًا لنفسك علىٰ تحقيق هٰذه الأمور الثَّلاثة، إذا كان صبرك ضعيفًا فاجتهد في تنميته واسأل الله جلَّ وعلا المعونة علىٰ ذلك، وإذا كان شكرك قليلًا فاجتهد أيضًا في تكثيره وتقويته واسأل الله ﷻ المعونة علىٰ ذلك، ﴿وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِيٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾ [النمل:١٩]، لا تكون شاكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ إلّا إذا أعانك الله ويسَّر لك، وأن تعني بالاستغفار وأن تكثر من الاستغفار وأن يكون

---

(١) مسلم (ح٢٧٤٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) صحيح ابن حبان (ح٩٢٨) والنسائي في الكبرىٰ (ح١٠٢١٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) البخاري (ح٤٤٤٠) ومسلم (ح٢٤٤٤) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها. وليس فيهما «الأعلىٰ»، وهي في الترمذي (ح٣٤٩٦) وابن ماجه (ح١٦١٩).

استغفارك في مجالسك وفي تنقُّلاتك وفي حركاتك استغفارًا كثيرا، فهٰذه كما أنَّها دعوة فهي لفتة من المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ العناية بهذه الأمور الثَّلاثة التي هي أبواب السَّعادة، وتكون عنايتك بها من جهتين:

الجهة الأولىٰ: أن تدعو لنفسك بهٰذا الدُّعاء؛ أن ييسِّر الله لك عَزَّ وَجَلَّ هٰذه الأمور الثَّلاثة التي هي عنوان السَّعادة.

والجهة الثَّانية: أن تُتبع الدُّعاء بفعل الأسباب؛ وذلك بأن تجاهد نفسك علىٰ أن تكون من الذين إذا ابتلوا صبروا وإذا أُنعم عليهم شكروا وإذا أذنبوا استغفروا.

[المتن]

اعلمْ أرشدكَ اللهُ لطاعته: أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم: أن تعبد الله مخلصًا له الدِّين كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تسمّىٰ عبادة إلّا مع التّوحيد، كما أنّ الصّلاة لا تسمّىٰ صلاةً إلّا مع الطّهارة، فإذا دخل الشِّرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطَّهارة.

فإذا عرفتَ أنَّ الشِّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النَّار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك: معرفة ذلك، لعلّ الله أن يخلّصَك من هٰذه الشَّبكة، وهي الشِّرك بالله الذي قال الله تَعَالىٰ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾(١)، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.

[الشرح]

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالىٰ: (اعلمْ أرشدكَ اللهُ لطاعته)؛ (اعلمْ) هٰذه الكلمة يُؤتىٰ بها بين يدي الأمور العظيمة والأمور الكبار، وقد تكرَّر مجيئها في كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ في التَّنبيه علىٰ الأمور العظام من ذلكم قوله تَعَالَىٰ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [محمد:١٩]، فهٰذه يُؤتىٰ بها لشدِّ الانتباه ولفت الانتباه واستدعاء القلوب للإصغاء ووعي هٰذه الأمور العظيمة الكبيرة، قال: (اعلمْ).

قال: (أرشدكَ اللهُ لطاعته) وهنا دعا بهٰذه الدَّعوة العظيمة بعد أن دعا إلىٰ الانتباه لما سيقال وما سيبيِّنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالىٰ دعا بهٰذه الدَّعوة العظيمة (أرشدكَ اللهُ لطاعته).

(أرشدكَ) أي: جعلك من أهل الرَّشاد والرَّشاد ضدُّ الغواية، قد قال الله تَعَالَىٰ عن نبيه ﷺ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ [النجم:٠٢]، الضَّلال ضدّه الهداية، والغواية ضدُّها الرَّشاد، وقوله: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ﴾ أي أنَّه سالمٌ من الضَّلال والغواية، وذلك بأنَّه اجتمع له عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ كمال العلم النَّافع والعمل الصَّالح، وقد قال نبيُّنا عَلَيْهِ الصَّلاةُ وَالسَّلامُ في ذكر الخلفاء الرَّاشدين: «فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ»(٢) جمع لهم بين هاتين الخصلتين، وهما تعنيان صلاح علم الإنسان وصلاح عمله؛ الهداية: صلاح العلم والرَّشاد: صلاح العمل.

قال: (أرشدكَ اللهُ لطاعته) أي: جعلك من أهل الرَّشاد الذين هم عالمون بالطَّاعة عاملون بها محافظون عليها.

(أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدِّين) هٰذا الأمر الذي دعا رَحِمَهُ ٱللَّهُ الانتباه إلىٰ ضبطه والعلم به ومعرفته (أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدِّين) هٰذه الحنيفيَّة التي

(١) سورة: النساء (٤٨، ١١٦).

(٢) أبو داود (ح٤٦٠٧)، والترمذي (ح٢٦٧٦)، وابن ماجه (ح٤٢، ٤٣) من حديث العرباض بن سارية رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وقال الترمذي: حسن صحيح. وقال الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صحيح.

هي ملَّة أبينا إبراهيم خليل الرَّحمٰن -عَلَيْهِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ-، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾ [النحل:١٢٣]، فملَّة إبراهيم التي أُمرنا باتِّباعها هي الحنيفيَّة، وتأمَّل الآية قال: ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ ﴾ فالدِّين الذي أُمرنا باتِّباعه ولزومه هو الحنيفيَّة ملَّة إبراهيم، ولهذا كان متأكِّدًا علىٰ كلِّ مسلم أن يعرف الحنيفيَّة ما هي، لأنَّا أُمرنا باتِّباعها ولزومها والتَّمسك بها والمحافظة عليها وأن نكون من أهلها، قال: (**اعلمْ.. أنّ الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله [وحده] مخلصًا له الدِّين**) هٰذه هي الحنيفيَّة، الحنيفيَّة التي هي ملَّة إبراهيم هي أن تعبد الله مخلصًا له الدِّين، ولهذا لا يكون الإنسان حنيفًا إلّا إذا كان مخلصًا، ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٥]، لا يكون من الحنفاء -والحنفاء جمع حنيف- لا يكون كذلك إلّا إذا كان مخلصًا دينه لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، بدون ذلك إلّا يكون حنيفًا، والحَنَفُ أصله في اللُّغة الميل، والمراد هنا الميل عن الباطل والعدول عن الباطل إلىٰ الحقِّ والهدىٰ والتَّوحيد والاستقامة، مائلًا عن الشِّرك إلىٰ التَّوحيد وعن الضَّلال إلىٰ الهدىٰ وعن الباطل إلىٰ الحقِّ وعن الغواية إلىٰ الرَّشاد هٰذا هو الحنيف. قال: (**الحنيفيّة ملّة إبراهيم أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدِّين**) وقوله: (**أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدِّين**) هٰذا هو التَّوحيد الذي خُلقنا لأجله ووُجدنا لتحقيقه، ولهذا قال المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (**كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾** [الذاريات:٥٦].) فالتَّوحيد الذي خلق الخلق لأجله وأُوجِدوا لتحقيقه هو أن يعبدوا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ مخلصين له الدِّين، وهٰذا يتطلَّب منك أن تعرف:

أوَّلا العبادة ما هي، ما حقيقتها، ما أفرادها.

ويتطلَّب منك ثانيًا أن تجعلها كلَّها لله، لا تجعل لأحد منها شيئًا.

يتطلَّب منك أن تعرف العبادة التي خُلقت لأجلها ووُجدت لتحقيقها.

ويتطلَّب منك أن تجعل العبادة كلَّها لله ﷻ لا تجعل لأحد أيًّا كان ومهما كان له منها حظًّا ولا نصيبًا، لا لملك مقرَّب ولا لنبيّ مرسل، ولا لغيرهما، فالعبادة حقٌّ لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

قال: (**أن تعبد الله مخلصًا**) ومعنىٰ (**مخلصًا**) أي أن تكون عبادتك لله خالصة، ومعنىٰ خالصة، أي صافية نقيَّة، ليس فيها شائبة شرك ولا رياء ولا نحو ذلك؛ بل هي صافية لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

وإذا أردت أن تعرف معنىٰ الإخلاص في لغة العرب فاقرأ قول الله تَعَالىٰ في سورة النَّحل سورة النِّعم اقرأ قوله جلَّ وعلا: ﴿ وَإِنَّ لَكُمْ فِى ٱلْأَنْعَٰمِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِى بُطُونِهِۦ مِنۢ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ ﴾ [النحل:٦٦]، ﴿خَالِصًا﴾ أي: صافيًا نقيًّا، الخالص في اللّغة الصَّافي النَّقي، وقد وصف ربُّنا جلَّ وعلا اللَّبن الذي يخرج من بهيمة الأنعام بأنَّه خالص؛ أي: صافي نقي، وذكر تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ أنَّه أخرجه من بين فرث ودم، ذكر جلَّ وعلا أنَّه أخرج هٰذا اللَّبن من بين فرث ودم، خرج اللَّبن من بين الفرث والدَّم لكنَّه خرج خالصًا؛ أي: صافيًا نقيًّا، لا ترىٰ فيه نقطة دم ولا قطعة فرث، مع أنَّه خرج من بين فرث ودم، فيخرج خالصًا أي: صافيًا نقيًّا، ويخرج أيضًا سائغًا للشَّاربين، مع أنَّهم علموا مخرجه، علموا من أين خرج؛ لكنَّه سائغ لهم أي يشربونه بتلذُّذ وهناءة وتطعُّم له وحبّ له مع أنَّهم يعلمون من أين خرج، فهٰذه الآية تبيِّن

لك معنىٰ الخالص في لغة العرب. وقوله: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وقوله: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ﴾ [الزمر:٣]، أي: الصَّافي النَّقي، ولهذا العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلّا إذا كانت لله خالصة، العبادة لا تكون مقبولة من العبد إلّا إذا كانت لله خالصة، ومعنىٰ خالصة أي صافية نقيَّة لم يُرد بها إلَّا الله جلَّ وعلا، ولهذا إذا خالط العبادة نيَّة أخرىٰ فإنَّها تخرج عن الإخلاص، وإذا خرجت عن الإخلاص لم تُقبل، ولهذا قال ربُّنا ﷻ في الحديث القُدسي: «**أنا أغنىٰ الشُّركاء عن الشِّرك، من عمل عملًا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**»(١) أي: أنَّه ﷻ لا يقبل العمل إلَّا إذا كان صافيًا نقيًّا خالصًا، لم يُرد به إلَّا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

قال: (**كما قال تعالىٰ**: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].) ﴿وَمَا خَلَقۡتُ﴾ الخلق فعله ﷻ قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ﴾ أي: لم أوجد الثَّقلين من العدم إلَّا لغاية بيَّنها ﷻ بقوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾، وقد جاء عن ابن عبَّاس ﷺ وغيره أنَّ: (كلَّ أمر بالعبادة في القرآن أمر بالتَّوحيد) ، فمعنىٰ قوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: إلّا ليوحِّدون في العبادة، ليخصُّوني بالعبادة، لا يعبدوا معي غيري، ليُفردوني في العبادة، قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ وقوله: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ العبادة فعل العبد، والله ﷻ جعل في العبد مشيئة، وهداه النَّجدين: طريق الحقِّ وطريق الضَّلال، قال تَعَالىٰ: ﴿فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل:٣٦]، فقولُه: ﴿إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ أي: إلَّا ليقوموا بعبادتي، هٰذا الذي خلقهم لأجله.

لكن هل كلُّهم فعل ذلك الذي خُلِق له؟ الجواب: لا، ولهذا قال في آية أخرىٰ: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنۡهُم مَّنۡ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنۡهُم مَّنۡ حَقَّتۡ عَلَيۡهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ﴾ [النحل:٣٦].

قال: (**فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تُسمّىٰ عبادة إلّا مع التَّوحيد**) وهٰذا أصلٌ لابدَّ أن يعرفه كلُّ مسلم، العبادة لا تُسمَّىٰ عبادة إلّا مع التَّوحيد، ولهذا نقلتُ لكم عن ابن عبَّاس أنَّه قال: (كلُّ أمر بالعبادة أمر بالتَّوحيد). لأنَّ العبادة لا تكون عبادة إلّا بالتَّوحيد، العبادة إذا دخلها إرادة غير الله وإشراك غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ معه في العبادة ماذا تكون؟ هل هي العبادة التي خلق الله الخلق لأجلها؟ قال: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]، هٰذه العبادة التي خلق الله ﷻ الخلق لأجلها هل هي تلك الأعمال التي يمارسها كثير من النَّاس يسألون الله ويسألون الأحجار، ويعبدون الله ويعبدون القباب والأحجار والأشجار وغيرها؟! هل هٰذا هو الذي خُلقوا لأجله؟! هل هٰذا المعنِي بقوله: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ﴾؟! ! حاشا وكلَّا، هٰذا ليس عبادة، وإنَّما هو شرك، ولهذا العبادة لا تكون عبادة إلّا مع التَّوحيد، ونظّر لذلك رَحِمَهُ اللَّهُ بمثال يوضِّح ذلك قال: (**اعلم: أنّ العبادة لا تسمّىٰ عبادة إلّا مع التَّوحيد، كما أنّ الصَّلاة لا تسمّىٰ صلاةً إلّا مع الطّهارة**) لو أنَّ إنسانًا صلَّىٰ؛ ركع وسجد وأتىٰ بأعمال

---

(١) مسلم (ح٢٩٨٥) من حديث أبي هريرة ﷺ.

الصَّلاة من أوَّلها إلىٰ آخرها؛ لكنَّه علىٰ غير طهارة هل يقال له: صليت أو يقال له: لم تصل؟ ارجع فصلِّ فإنَّك لم تصلِّ؛ أي: لم تصلِّ الصَّلاة التي أُمرت بها وطُلبت منك، قال: ارجع فصلّ فإنَّك لم تصلِّ، فالذي يصلِّي بغير طهارة كأنَّه ما صلَّىٰ، صلاته وجودها وعدمها سواء؛ لأنَّ الصَّلاة لا تكون صلاة إلَّا مع الطَّهارة، والعبادة لا تكون عبادة إلَّا مع التَّوحيد، فإذا كانت العبادة قائمةً علىٰ التَّوحيد كانت عبادة صحيحةً مقبولة، وإذا كانت العبادة ولو كانت كثيرة أمضىٰ فيها حياته ودهره، إذا لم تكن قائمة علىٰ التَّوحيد فإنَّها كلَّها تذهب سدًىٰ وتضيع ﴿ وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾ [الفرقان: ٢٣] ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِٱلْأَخْسَرِينَ أَعْمَٰلًا ﴿١٠٣﴾ ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف] فهٰذا أصل عظيم يجب علىٰ كلِّ مسلم أن يضبطه، العبادة لا تكون عبادة إلَّا مع التَّوحيد، كما أنَّ الصَّلاة لا تكون صلاةً إلّا بالطَّهارة، فمن عبد الله بغير التَّوحيد فهو مشرك بالله لا يقبل الله ﷻ منه عبادته، ومن عبد الله ﷻ بالصَّلاة من غير طهارة لم يقبل الله منه صلاته، وجود الصَّلاة وعدمها سواء، فهٰذا أصل عظيم يجب علىٰ كلِّ مسلم أن يضبطه وأن يعتني به، العبادة لا تكون عبادةً إلّا مع التَّوحيد؛ وهٰذا يعني أن تعرف العبادة ما هي، والأمر الثَّاني -ذكرناه قبل قليل- أن تجعلها كلَّها لله؛ لماذا؟ لأنَّ الإنسان لو جعل لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ شيئًا من العبادة ولو شيئًا قليلًا أبطل دينه كلَّه، لماذا يبطل دينه كله؟ لأن العبادة لا تكون عبادة إلّا مع التَّوحيد، فإذا جُعل مع الله ﷻ شريك في العبادة ولو في شيء قليل منها، أبطل العبادة كلَّها، والشِّرك في العبادة مثل السُّم في الطَّعام، إذا وُضع السُّم في بعض الطَّعام أفسد الطَّعام كلَّه وأتلفه أجمعه، ومن الذي يقبل طعامًا وُضع في بعضه سُمّ، السُّم يسري في الطَّعام له ويفسده كلَّه، العبادة لا تكون عبادة إلّا مع التَّوحيد بأن يكون العبد موحِّدًا لله جلَّ وعلا مخلصًا في عبادته كلِّها، وهٰذا يعني أن تكون صلاتك لله، حجُّك لله، ذبْحُك لله، نذرك لله، دعاؤك تتوجَّه به إلىٰ الله، توكُّلك علىٰ الله، رجاؤك من الله، خوفك من الله، كلُّ العبادات لا تصرف شيئًا منها إلَّا لله ﷻ: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ ﴾ [البينة:٠٥]، ﴿ أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ ﴾ [الزمر:٠٣]، ﴿ وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴾ [الجن:١٨]، والآيات في هٰذا المعنىٰ كثيرة جدًّا.

قال: (فإذا دخل الشِّرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطَّهارة.) الإنسان إذا كان علىٰ طهارة: توضَّأ وأصبح طاهرًا، ثم أحدث هل تبقىٰ طهارته علىٰ ما هي عليه وقد أحدث؟ الجواب: لا، والشِّرك إذا دخل في العبادة أفسدها مثل الحدث إذا دخل علىٰ الطَّاهر فإنّه يفسد طهارته ويحتاج أن يتطهَّر من جديد.

وهٰذا الشَّبه بين الطَّهارة من الحدث والطَّهارة من الشِّرك جاء الإشارة إليه في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾[المدثر]، قيل في معناها: طهِّر نفسك من الشِّرك وممَّا ينقض الدِّين ويفسد الإيمان. وقيل في معناها: طهِّر ثيابك من النَّجاسة الحسِّيَّة، (طهِّر ثيابك) يتناول الطَّهارة المعنوية والطَّهارة الحسِّيَّة ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ﴿٥﴾﴾ [المدثر]، أي الأصنام وعبادة غير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، قال: (فإذا دخل الشِّرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطَّهارة.) المثال الذي ذكره المصنِّف مثال

يُجَلِّي هٰذا لأمر تجليةً واضحة، من الذي يعرف مكانة الطَّهارة في الصَّلاة ثم يقدم علىٰ أن يصلِّي وعليه حدث؟ اسأل عامة المصلِّين، اسأل من يصلِّي وقد عرف أنَّ صلاته لا تقبل إلَّا بالطَّهارة، هل من عرف ذلك إذا توجَّه للمسجد ثم أحدث وهو في الطَّريق هل يستمر في السَّير إلىٰ المسجد، أو يبحث عن كان يتطهَّر فيه ثم يدخل ليصلِّي طاهرًا، هٰذا أمر معروف. الأمر تمامًا في باب العبادة، العبادة لا تكون عبادةً مقبولة إلّا إذا خلصت ونُقِّيت وسلِمت من الشِّرك، فإذا دخل الشِّرك في العبادة أفسد العبادة وأتلفها.

قال: (**فإذا عرفتَ أنّ الشِّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من المخلَّدين في النَّار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك: معرفة ذلك**) أي: معرفة الشِّرك، لماذا تعرفه؟ الشِّرك عرفنا أنَّه إذا دخل في العبادة أفسدها، جعلها حابطةً باطلةً غير مقبولة.

إذن يجب علينا أن نعرف الشِّرك أو لا يجب؟ يجب علينا أن نعرف الشِّرك من أجل أن ننقِّي عبادتنا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ منه ونصفِّيها منه ونجعلها خالصةً ليس فيها شيء من الشِّرك.

فإذن يجب علىٰ كلِّ مسلم أن يعرف الشِّرك من أجل أن يحذره:

عرفت الشَّر لا للشر ... ر ولكن لتوقِّيه
فإنَّ من لم يعرف الشَّر ... من النَّاس يقع فيه

وإذا لم يعرف الإنسان الشِّرك وحقيقته ربَّما دخل الشِّرك في جوانب من عبادته فأفسدها وهو في قرارة نفسه لا يزال يظنُّ أنه من أهل التَّوحيد ومن أهل لا إلٰه إلا الله وبينما قد أدخل علىٰ نفسه أنواعًا من الشِّرك تفسد عمله وعبادته وتحبط دينه، ولهذا كان واجبًا علىٰ كلِّ مسلم أن يعرف الشِّرك من أجل أن يحذر الشِّرك، وأن يكون خائفًا علىٰ نفسه من الوقوع في الشِّرك، وتأمَّل دعوة إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ۝٣٥ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ﴾ [إبراهيم].

فإذن يجب علىٰ المسلم أن يعرف الشِّرك من أجل أن يحذره، كما أنَّه يجب أن يعرف التَّوحيد من أجل أن يحقِّقه، ويكون من أهله.

قال: (**فإذا عرفتَ أنّ الشِّرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النَّار**)، قوله: (**أحبط العمل**) يدلُّ عليه قول الله في القرآن: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٦٥ بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ﴾ أي وحده ﴿وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ۝٦٦﴾ [الزمر]، فالشِّرك إذا دخل العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من المخلَّدين في النَّار لقوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء:١١٦، ٤٨].

(**عرفت أنَّ أهمَّ ما عليك: معرفة ذلك**) أي معرفة الشِّرك لتوقِّيه، معرفة التَّوحيد لتحقيقه، قال: (**لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبَكة**) وانظر هٰذا الوصف العجيب للشِّرك قال: (**لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبَكة**) الشِّرك شبكة، وأنتم تعرفون أن الشَّبكة لها خيوط، لها خيوط كثيرة ممتدَّة الأطراف هنا وهناك، وإذا لامس الإنسان شيئًا من خيوط هٰذه الشَّبكة ابتُلِي بها وأمسكته وصار من أهلها، ولهذا الشِّرك شبكة له خيوط، له فروع كثيرة، له أنواع كثيرة، له أبواب عديدة، فإذا عرفت أن الشِّرك أخطر شيءٍ وأنَّه إذا دخل

العبادة أفسدها وأبطلها وجب عليك علىٰ معرفة بالشِّرك حتَّىٰ تكون منه علىٰ حذر وتوقٍّ وبُعدٍ عنه.

وأيضًا هنا يفيدك هٰذا التَّعبير من المصنِّف بقوله: (هٰذه الشبكة) أنَّ الشِّرك له مجالات كثيرة وجوانب عديدة من خلالها يُصطاد النَّاس ويخرجون عن الإخلاص والصَّفاء في العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ إلىٰ الوقوع في شبكة الشِّرك والعياذ بالله.

قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (لعلّ الله أن يخلّصك من هٰذه الشَّبكة، وهي الشِّرك بالله) يتطلّب منك كما قدَّمت وأعيد ذلك لأهمِّيته:

- أن تعرف الشِّرك.
- وأن تكون منه علىٰ حذر.
- وأن تسأل الله ﷻ أن يعيذك منه.

وقد جاء في دعاء عظيم علَّمه النَّبيُّ -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- أصحابه عندما قال لهم: «أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا الشِّرْكَ، فَإِنَّهُ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ»، قالوا: وَكَيْفَ نَتَّقِيهِ يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُوَ أَخْفَىٰ مِنْ دَبِيبِ النَّمْلِ؟ قَالَ: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا تَعْلَمُهُ وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»[1] فيدعو الإنسان ربَّه جلَّ وعلا أن يخلِّصه من الشِّرك ويعرف الشِّرك ويكون منه علىٰ حذر، قال: (وهي الشِّرك بالله الذي قال الله تَعَالىٰ فيه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ﴾[2]) وهٰذه وردت في موضعين من سورة النِّساء، وقد توعَّد تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ المشرك الذي يموت علىٰ الشِّرك ويلقىٰ الله ﷻ مشركًا بأنَّه لا يغفر له؛ بل يعذِّبه في النَّار ويخلِّده فيها أبد الآباد، ولا مطمع له في رحمة الله أبدًا إذا مات علىٰ الشِّرك بالله جلَّ وعلا، ولهذا قال الله تَعَالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَهُمۡ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقۡضَىٰ عَلَيۡهِمۡ فَيَمُوتُواْ وَلَا يُخَفَّفُ عَنۡهُم مِّنۡ عَذَابِهَاۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي كُلَّ كَفُورٖ﴾ [فاطر:٣٦]، فالكافر المشرك يُدْخَل يوم القيامة النَّار ويخلَّد فيها أبد الآباد، ولا يخفَّف عنه من عذابها، لا يخفَّف العذاب؛ بل إنَّه يزيد، ولهذا قال جلَّ وعلا في سورة النَّبأ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾ [النبأ:٣٠]، ولهٰذا قال بعض المفسِّرين: إن أشدَّ آية علىٰ أهل النَّار هي قول الله تَعَالىٰ: ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾ لأنَّهم عندما يدخلون النَّار لا يزالون عندهم بعض الآمال، من الآمال أن يُعادوا إلىٰ الدُّنيا مرَّة ثانية: ﴿رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا غَيۡرَ ٱلَّذِي كُنَّا نَعۡمَلُۚ﴾ [فاطر:٣٧]، من الآمال أن يُقضىٰ عليهم فيموتوا ويَسْلموا من هٰذا العذاب ومن هٰذه الشَّدائد، هٰذه من الآمال. ومن الآمال أن يخفَّف عنهم العذاب ولو قليلًا، ثم يأتيهم هٰذا الأمر الذي يقطع عليهم كلُّ الآمال ﴿فَذُوقُواْ فَلَن نَّزِيدَكُمۡ إِلَّا عَذَابٗا﴾ أي: لن تنالوا في النَّار إلّا زيادة العذاب، لا ينقطع ولا يُخَفَّف ولا يقضىٰ علىٰ أهله، فيموتوا بل لا يزالون في العذاب أبد الآباد مخلَّدين في نار جهنَّم أجارنا الله وأجاركم ووقانا ووقاكم.

فإذن يجب علىٰ العبد أن يكون علىٰ غاية الحذر من هٰذا الشِّرك الذي هو أخطر أمر وأعظم أمر نهىٰ

---

(١) الطبراني في الأوسط (ح٣٤٧٩) من حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سورة: النساء (٤٨، ١١٦).

الله ﷻ عباده عنه، ولهذا أوَّل أمر يصادفك في القرآن هو الأمر في العبادة، وأوَّل نهي يصادفك في القرآن هو النَّهي عن الشِّرك ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، هٰذا أوَّل شيء نهىٰ الله عنه في القرآن الكريم.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.**) وانتبه لقوله رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ذكرها الله تعالىٰ في كتابه**) لتعلم من خلال لذلك أنَّ الرَّجل -رحمة الله عليه- لا يأتي بشيء من نفسه، لا يتكلَّف شيئًا من نفسه، وإنَّما يجمع للنَّاس ما جاء في القرآن وما جاء في سنَّة النَّبي الكريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، قال: (**وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.**)، ثم ذكرها قاعدة قاعدة، وذاكرًا مع كلِّ قاعدة دليلها وشاهدها من كتاب الله ﷻ، وهي قواعد عظيمة جليلة كبيرة ينبغي علىٰ كلِّ مسلم ومسلمة أن يحفظها، ولعلَّ أعظم هدية يقدِّمها من حجَّ لإخوانه وجيرانه وأهله ورُفقائه أن يعرف هٰذه القواعد معرفة جيِّدة ويقدِّمها هدية هي أثمن هدية يقدِّمها للجار وللقريب وللصَّديق وللحبيب وللرَّفيق أعظم ما يُقدَّم له هٰذه القواعد العظام الكبار التي دلَّ عليها كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وسنَّة نبيِّه ﷺ.

والحديث له صلة إن شاء الله، ونسأل الله ﷻ أن ينفعنا أجمعين بما علَّمنا وأن يفقِّهنا في ديننا، وأن يُصلح لنا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأن يُصلح لنا دنيانا التي فيها معاشنا، وأن يُصلح لنا آخرتنا التي فيها معادنا، وأن يجعل الحياة زيادةً لنا في كلِّ خير، والموت راحةً لنا من كلّ شرٍّ، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات، إنَّه -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- غفور رحيم، والله أعلم، وصلَّىٰ الله وسلَّم علىٰ عبد الله ورسوله نبيِّنا محمَّد، وآله وصحبه أجمعين.

الدَّرس الثَّاني (٢٠/ ١٢/ ١٤٢٨)

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وعلىٰ أصحابه أجمعين.

قال شيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ في كتابه القواعد الأربع:

[المتن]

القاعدة الأولىٰ: أن تعلم أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّون بأنّ الله تَعَالىٰ هو الخالِق المدبِّر، وأنّ ذلك لم يُدْخِلْهم في الإسلام، والدَّليل قوله تَعَالىٰ: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس:٣١].

[الشرح]

هٰذه قواعد أربع جمعها المصنف -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ- في هٰذه الرِّسالة التي اشتُهرت بالقواعد الأربع؛ لأنَّها جمعت أربع قواعد عظيمة جدًّا ومهمَّة يحتاج إليها كلّ مسلم؛ لأنَّ بمعرفة هٰذه القواعد يميز المسلم بين الحق والباطل، والتَّوحيد والشِّرك، والهدىٰ والضلال، ولا تلتبس عليه الأمور، ولا تنطلي عليه شبهات المضلين وأضاليل المبطلين؛ بل إنّ هٰذه القواعد تكون له بإذن الله ﷻ نعم العون علىٰ المحافظة علىٰ التَّوحيد الصحيح والإيمان الراسخ، والبُعد عن الشرك الذي هو أعظم الذُّنوب وأظلم الظلم.

هٰذه القواعد - أيها الإخوة الكرام - قواعد عظيمة جمعها المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ ليَميز بها المسلم بين التوحيد والشرك، ليعرف حقيقة التَّوحيد الذي خلق الخلق لأجله أوجدوا لتحقيقه، ويعرف من خلالها حقيقة ضده وما ينقضه وهو الشِّرك بالله ﷻ الذي هو أعظم شيءٍ نهىٰ الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- عباده عنه وتوعَّد أهله بأن يعذبهم يوم القيامة وأن يخلِّدهم في نار جهنم أبد الآباد وأن يدخلهم نار جهنم، وأن يبقوا فيها مخلدين لا يقضىٰ عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها، وكلُّ مسلم قرأ ما جاء في القرآن الكريم وسنة النبي ﷺ من الوعيد للمشركين والتَّهديد لهم والعقوبات التي أعدّها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- لهم يخاف من الشِّرك أعظم الخوف ويحاذره أشد المحاذرة، ويحتاط لنفسه من أن يقع فيه أو في شيء من جوانبه.

وكما قدمتُ فإن هٰذه القواعد العظيمة المباركة التي جمعها المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ تعين العبد علىٰ ضبط هٰذا الأمر، وتعينه علىٰ حُسن فهمه، وعلىٰ السَّلامة من شبهات أهل الباطل.

وقد بدأها رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ بقوله: (وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.)، وقوله رحمة الله عليه: (ذكرها الله تعالىٰ في كتابه) يبيّن لنا المنهج الذي سار عليه -رحمة الله عليه- في بيان العلم

وتقرير الحق والهدىٰ، فهو في كلِّ ما يبينه ويقرِّره يذكر شواهد ذلك من كتاب الله ﷻ وسنَّة نبيِّه ﷺ لا يأتي بشيء من قبل نفسه، ولا يبني حُكمًا علىٰ الهوىٰ أو علىٰ التجربة، أو علىٰ الذوق، أو نحو ذلك من المسالك التي يسلُكها كثير من الناس في الاستدلال لم يقوموا به من عبادات وأعمال، فهو رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ لا يبني شيئًا من أمور الدِّين إلَّا علىٰ قال الله قال رسوله ﷺ، ولهذا جاءت عامة كتبه رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ قائمة علىٰ هٰذا الأصل؛ يذكر الحكم مضموما إليه دليله من كتاب الله ﷻ وسنة نبيه صلوات الله وسلامه عليه، وهٰذه الطَّريقة هي الطريقة الصَّحيحة التي ينبغي أن يكون عليها كل مسلم في عقيدته ودينه؛ إذ كيف تُعرف العقيدة الصحيحة والإيمان القويم بغير الاعتماد علىٰ كلام الله وكلام رسوله صلواتُ الله وسلامه عليه، وكما قال من قال من أهل العلم: كيف يُرام الوصول إلىٰ علم الأصول بغير معرفة ما جاء به الرسول ﷺ.

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية -رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ- كثيرا ما يقول: من فارق الدَّليل ضلَّ السَّبيل. ولا دليل إلا بما جاء به الرسول ﷺ.

فهذه جادة مباركة وطريق قويمة كان عليها الإمام المجد رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ، وكان عليها أئمة أهل العلم من قبله وكذا من قبله؛ يقيمون أمور الدين علىٰ قال الله قال رسوله ﷺ، ولهذا قال لك هنا: (**وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالىٰ في كتابه.**) ثم شرع في ذكرها قاعدة تلوىٰ الأخرىٰ.

بدأ بالقاعدة الأولىٰ، قال: (**أن تعلم أنّ الكفّار الذين قاتلهم رسول الله ﷺ مُقِرُّون بأنّ الله تَعَالىٰ هو الخالِق المدبِّر، وأنّ ذلك لم يُدْخِلْهم في الإسلام**) وهٰذا -أيها الإخوة- أصل عظيم وقاعدة مهمة في هٰذا الباب أن نعلم أن الكفار المشركين الذين ورد ذمهم في آيات كثيرة من القرآن الكريم، وقاتلهم النبي ﷺ واستباح أموالهم وقاتلهم صلوات الله وسلامه عليه كانوا مقرين بأن الخالق المنعم الرازق هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ما كانوا يقولون: إن الذي يخلق هو الأصنام أو الذي يرزق هو الأصنام، أو الذي يعطي ويمنع هو الأصنام، لا كانوا يقولون ذلك؛ بل يقولون: الخالق الله، الرازق الله، المنعم الله، المدبر الله، كانوا يقولون ذلك ويقرُّون به، والله ﷻ بيّن لنا ذلك في القرآن الكريم في آيات كثيرة جدًّا، بيّن فيها تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ أنّ المشركين الكفار الذين قاتلهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ كانوا مقرِّين بأنَّ الخالق الرازق المنعم المتصرِّف المدبر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ولم يدخلهم هٰذا الإقرار في الإسلام كما بيَّن ذلك المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ قال: (**لم يُدْخِلْهم في الإسلام**)؛ لأنَّ الدخول في الإسلام لا يكون بمجرد الإقرار بربوبية الله، وأنه ﷻ الخالق الرازق المنعم المتصرف؛ بل لابد مع ذلك من الإتيان بلازم هٰذا الإقرار ألا وهو أن يُفرَد تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بالعبادة، وأن يخصَّ وحده ﷻ بالطاعة، وأن لا يجعل معه شريك وأن يُخلص الدين له جل وعلا كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة:٥]، وكما قال جل وعلا: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـٔٗاۖ﴾ [النساء:٣٦]، وكما قال جل وعلا: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وكما قال جل وعلا: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل:٣٦]، وكما قال جل وعلا: ﴿قُلۡ تَعَالَوۡاْ أَتۡلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمۡ عَلَيۡكُمۡۖ أَلَّا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ

﴿شَيْئًا﴾ [الأنعام:١٥١]، وكما قال جل وعلا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٠٣]، وكما قال جلّ وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، والآيات في هٰذا المعنىٰ كثيرة جدًّا فلا يكون المرء موحدا لله ﷻ إلا إذا أخلص العبادة لله، لا بمجرد إقراره بأنَّ الرب الله، والخالق الله، والرازق الله، والمنعم الله، هٰذه وحدها ليست كافية لأن يكون العبد بها موحدا، إذْ لا يكون موحدا إلا إذا جاء بالتوحيد العملي الذي هو إخلاص العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وإفراده سبحانه بالعبادة دون سواه، بأن لا يدعو إلا الله، ولا يستغيث إلا بالله، ولا يصلي ويسجد ويركع إلا لله، ولا يذبح وينذر إلا لله، ولا يتوكل ويرجو ويخاف إلا من الله، ولا يصرف شيئا من العبادة إلا له ﷻ، كما قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ﴾ [الأنعام]، أي بهٰذا التوحيد وهٰذا الإخلاص لله ﷻ، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ (٦٦) وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الزمر].

ولما كانت هٰذه الرسالة رسالة مختصرة لا تحتمل الاستيعاب وبسط الدلائل والشواهد اكتفىٰ بذكر دليل من دلائل القرآن الكريم علىٰ أن الكفار المشركين الذين قاتلهم النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- كانوا مقرِّين بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ فساق رَحِمَهُ اللهُ فساق ما جاء في سورة يونس ﴿قُلْ﴾ أيها النبي للمشركين ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ قل أيها النبي، موجها الخطاب للمشركين الذين بعثت فيهم قائلا لهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم﴾ سلهم هٰذا السؤال: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾ [يونس: ٣١] سل المشركين الذين يعبدون الأصنام والذين يتخذون الآلهة والأنداد وعبدوا مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ غيره، سلهم هٰذا السؤال قل لهم: ﴿مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ من الذي يمنّ عليكم بالرزق من السماء؛ أي بالأمطار التي تنزل من السماء محملة بالخير والبركة والغيث للناس والعباد والماشية، ومن الأرض بإخراج النباتات والزروع وأصناف النعم التي يمنّ بها تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ علىٰ عباده، ماذا يقولون؟ هل يقولون: إن الذي يرزقنا من السماء والأرض هو الأصنام؟ لا يقولون ذلك؛ بل يعتقدون الأصنام ليست خالقة ولا رازقة ولا مدبِّرةً ولا متصرفة، وإذن لماذا يعبدونها ؟ سيأتي الجواب علىٰ ذلك، لا يعتقدون أنها خالقة، ولا يعتقدون أنها رازقة، ولا يعتقدون أنها مدبرة أو مصرفة،لا يعتقدون ذلك، وإذا سئلوا: من يرزقكم من السماء والأرض؟ لا يقولون: الأصنام؛ بل يقولون: الله هو الذي يرزقنا من السماء والأرض، أيضا سلهم من يملك السمع والأبصار، من الذي بيده ملك السمع وملك البصر وملك كل شيء، سيقولون الله هو المالك للسمع، وهو المالك للبصر، وهو المالك لكل شيء. أيضا سلهم: من يخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، من هو الذي بيده الحياة والموت، والتصريف والتدبير، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، لا يقولون: الأصنام؛ بل يقولون الذي يفعل ذلك هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، الخالق لكل شيء، المتصرف في هٰذا الكون، وحده جل

وعلا. أيضا سلهم: من الذي يدبر الأمر، الأمور هٰذا الكون من إحياء وإماتة، وعطاء ومنع، وخفض ورفع، وعزٍّ وذُلٍّ.. وغير ذلك من أنواع التدبيرات، من الذي يقوم بذلك؟ لا يقولون الأصنام هي التي تدبر الأمر؛ بل يقولون: الله، ولهذا قال تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ﴾ هٰذا الجواب الذي يجيبون به، أي: سيقول المشركون الكفار إذا سألتهم هٰذا السؤال: الذي يرزق من السَّماء والأرض، والذي يملك السمع والبصر، والذي يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، والذي يدبر الأمر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ إذا قالوا: إنَّ الذي يخرج هٰذه الأشياء ويدبر هٰذه الأمور هو الله، فقل لهم: ألا تتقون الله، لماذا تتخذون معهم أندادا، وتتخذون معهم شركاء، وأنتم تقرُّون أنه لا خالق لكم غير الله، ولا مدبر للأمر غير الله، ولا مالك إلا الله، ألا تتقون الله فتفردونه بالتوحيد وتخصونه بالطاعة وتخلصون له الدين، وقد أقررتم أنه خالقكم ورازقكم والمدبر للأمور كلها، ألا تتَّقون الله ﷻ، ﴿فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ أي بترك الشرك و البعد عن الكفر والإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بالعبادة والتوحيد، فهٰذه الآية ولها نظائر كثيرة جدّا في كتاب الله جل وعلا تركها المصنف مراعاة للاختصار في هٰذه الرسالة كلها تشهد وتدل علىٰ أن المشركين كانوا يقرون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

ويأتي هنا سؤال قرر من خلاله المصنِّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ هٰذه القاعدة، هل الإقرار المشركين بأن الخالق الرازق المنعم المالك هو الله، هل هٰذا الإقرار أدخلهم في التوحيد والإسلام، هل كانوا بهذا الإقرار موحدين مسلمين؟ أم هم مع هٰذا الإقرار مشركون بالله كفار؟

وانظر الجواب علىٰ هٰذا السؤال في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]، ما معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي خالقا رازقا مالكا مدبرا متصرفا ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي مشركون معه غيره في العبادة، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ﴾ أي خالقا رازقا منعما متصرفا مدبرا ﴿إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾ أي: إلا وهم مشركون معه في العبادة، يقرون بأنه الخالق ولكن يدعون غيره، ويتوكلون علىٰ غيره، ويذبحون لغيره، ويصرفون أنواعا من العبادة لغيره.

هٰذا معنىٰ قوله: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِٱللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾، وأيضا قوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في سورة البقرة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة]، ما معنىٰ قوله: ﴿وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؟ والخطاب للمشركين الذين اتخذوا الأنداد ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تعلمون ماذا؟ تعلمون أنه لا خالق لكم غير الله، لا رازق لكم غير الله، لا مدبر للأمر غير الله، أنتم تعلمون ذلك، والشواهد علىٰ أنهم يعلمون ذلك هاهي أماننا من كتاب الله؛ من يملك السمع والأبصار، من يملك السماء والأرض؟ من يدبر الأمر؟ من يخرج الحي من الميت؟ كل ذلك يجيبون قائلين: الله.

إذن هم يعلمون أن الذي يخلق ويرزق وينعم، ودبر ويحيي ويميت ويتصرف، يعلمون أن الفاعل لذلك والموجد لذلك والخالق لذلك هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ليس له شريك في ذلك.

إذن لماذا يتخذون الأنداد والشركاء؟ لماذا يتخذون الأنداد والشركاء؟ هٰذا سؤال، هل الجواب علىٰ ذلك أنهم اتخذوا الأنداد والشركاء لأنهم يعتقدون أن هٰذه الأنداد تخلق، وأنها تحيي وتميت، وأنها ترزق من السماء والأرض، وأنها تملك السمع والأبصار؟ هل هٰذا الجواب علىٰ هٰذا السؤال صحيح؟ أبدا.

إذن لماذا كانوا يتخذون الأنداد مع أنهم يقرون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تدبر الأمر، ولا تحيي ولا تميت، لماذا يتَّخذون الأنداد؟ الجواب علىٰ ذلك سيأتي عند المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في قاعدة آتية؛ لكن هنا ينبغي أن نفهم من هٰذه القاعدة العظيمة التي ذكرها رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ، أنَّ إقرار المرء بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، هٰذا وحده لا يكفي لأن يكون به موحدا، لا يكفي هٰذا إقرار لأن يكون به موحدا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ؛ بل لا يكون موحدا لله إلا إذا أتىٰ بلازمه لا وهو إفراد الله تَعَالىٰ بالعبادة وإخلاص الدين له، كما قال ربُّنا جل وعلا: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢]، وكما قال جل وعلا: ﴿وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٩٢]، أي: اعبدوا الرب الذي تفرد بالخلق والرزق والملك والإحياء والتدبير والتصرف، أفردوه وحده تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بالعبادة، ولهذا كانت هٰذه الحقيقة التي قرّرها القرآن واهتدىٰ إليها بعض المشركين كانت سببا لهدايتهم وتركهم لعبادة الأوثان وتخلُّصهم من عبادة الأصنام التي لا تملك شيئا ولا تملك ضرًّا ولا عطاء ولا نفعا.

مثل قصة عمرو بن الجموح وهي قصة عجيبة وكان سبب إسلامه، وكان سيدا في قومه وكان قد خص نفسه بصنم عنده في البيت محتفيًا به ومعتنيا به، يطيبه وينظِّفه ويجمله، ويضعه في مكان جميل في البيت، وكان كلَّما دخل إلىٰ بيته عبد هٰذا الصنم، فمنّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ علىٰ ابنه معاذ بالإسلام وعلىٰ بعض صغار الخزرج منّ الله عليهم بالإسلام فخططوا خطة يوضحوا من خلالها لعمرو بن الجموح أن هٰذه الأصنام لا تستحق هٰذه العبادة -مثل الخطة التي قام بها إمام الحنفاء إبراهيم الخليل عليه السلام- فجاؤوا في الليل ووالده نائم الذي هو عمرو بن الجموح وأخذوا الصنم وذهبوا به إلىٰ المكان الذي تقضىٰ فيه الحاجة ووضعوا الصنم منكسًا علىٰ رأسه فوق العذرة، فلما أصبح يريد أن يعبد ذلك الصنم أخذ يبحث عنه ما وجده، فأخذ يبحث عنه في البيت هنا وهناك إلىٰ أن وجده منكَّسًا علىٰ رأسه فوق العذرة، فغضب من هٰذا المنظر، ولا يزال قلبه متعلقا بهٰذا الصنم فأخذه، وغسله ونظفه وطيَّبه وأعاده إلىٰ مكانه وعبده، وهو قبل قليل حمل من فوق العذرة ملطَّخا بالعذرة معبوده وأخذه وغسله وأزال عنه الوسخ بيده ونظفه، ثم وضعه أمامه وقام علىٰ عبادته.

ثم أعادوا الكرة ثانية وأيضا بحث عنه ووجده علىٰ هٰذه الصفة، ونظفه وأعاده إلىٰ مكانه واستمر علىٰ عبادته.

المرة الثالثة لما أعاد الصنم إلىٰ البيت جاء في الليل ووضع بجنب الصنم سيف، قال: إن كنت صادقا دافع عن نفسك، يعني: إلىٰ متىٰ أنا الذي أدافع عنك وأبحث عنك وأنظفك، أنت دافع علىٰ نفسك، هٰذا السيف دافع عن نفسك، إن كنت حقا صادقا، وضع السيف عنده، جاؤوا في الليل وأخذوا الصنم

بالسيف وذهبوا إلىٰ المكان الذي تلقي فيه النساء الحيض والقاذورات وربطوا في عنقه كلب ميت، وأخذوا السيف، ورموه في هٰذا المكان، وأخذ يبحث عنه ثم وجده بهٰذه الصفة، وحينئذ طابت نفسه، لما تقرر عنده هٰذا الأمر، إذا كان لا ينفع نفسه كيف ينفعني؟ إذا كان لا يملك لنفسه دفعًا ولا نفعا ولا عطاء ولا منعا، لماذا أعبده؟ لماذا أبكي عنده؟ لماذا أمدُّ يدي عنده أدعوه وهو لا يملك شيئا لنفسه؟ كيف يملك لي شيئا وهو لا يملك لنفسه شيئا؟

مثل هٰذه القصة أيضا قصة رجل من المشركين سافر إلىٰ مكان بعيد ومعه أغنامه إلىٰ صنم من الأصنام وهو يريد أن يدعوه ويسأله ويعرض عليه حاجاته، ولما وصل إلىٰ الصنم فوجئ أن فوق الصنم ثعلب، والثعلب يبول والبول ينزل من فوق رأس الصنم إلىٰ أسفل قدميه فهاله المنظر ثم قال بيتا:

أَرَبٌّ يَبُولُ الثُعلُبانُ بِرَأسِهِ لَقَد هانَ مَن بالَت عَلَيهِ الثَّعالِبُ

لا تملك شيئا لنفسها فكيف تملك شيئا لغيرها يقول الله جل وعلا: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ كيف تعبدون أحجارا أو أشجارا لا تملك لنفسها ضرا ولا منعا ولا عطاء ولا خفضا ولا رفعا؟ كيف تعبدون هٰذه الأشياء.

ثم هنا يأتيك سؤال ضعه في بالك لأنه سيأتي في قاعدة عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ قاعدة مهمة: هل الشرك الذي حرمه الله ﷻ هل هو عبادة الأحجار فقط والأشجار؟ هل الشرك الذي حرمه الله هل هو فقط عبادة الأحجار والأشجار، أو عبادة كل شيء سوىٰ الله؟ يعني مثلا من عبد ملكا من الملائكة هل سيكون مشركا أولا يكون مشركا إلا إذا عبد حجرًا، من عبد نبيا من الأنبياء كعيسىٰ عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أو غيره من الأنبياء هل يكون بذلك مشركا أو لا يكون مشركا إلا عبد حجرا من الأحجار؟

هٰذه مسألة مهمة، وسيأتي التقرير عليها من كتاب الله في قاعدة مهمة جدا عند المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ.

إذن هٰذه القاعدة -القاعدة الأولىٰ- قرَّر فيها رَحِمَهُ ٱللَّهُ تَعَالَىٰ أنَّ إقرار العبد بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المتدبر هو الله، هٰذا وحده لا يكفي لأن يكون فيه موحدا؛ بل لابد مع ذلك أن يكون مقرًّا أن يأتي بلازم ذلك وهو توحيد الله ﷻ بالعبادة وإخلاص الدين له ﷻ.

[المتن]

القاعدة الثانية: أنّهم يقولون: ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القُرْبة والشفاعة.

فدليل القُربة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِى مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى مَنْ هُوَ كَٰذِبٌ كَفَّارٌ﴾ [الزمر:٠٣].

ودليل الشفاعة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ أَتُنَبِّـُٔونَ ٱللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس:١٨].

والشفاعة شفاعتان:

- شفاعة منفيّة.
- وشفاعة مثبَتة.

فالشفاعة المنفيّة ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله، والدليل قوله تَعَالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ ۗ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤].

والشفاعة المثبَتة هي: التي تُطلب من الله، والشّافع مُكْرَمٌ بالشفاعة، والمشفوع له: من رضيَ اللهُ قوله وعملَه بعد الإذن كما قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥].

[الشرح]

وهٰذه هي القاعدة الثانية، وهي قاعدة عظيمة ومهمة جدا، وهي متممة ومكلمة للقاعدة الأولىٰ؛ وذلك أننا عرفنا في القاعدة الأولىٰ أن المشركين الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، وأن هٰذا لم يدخلهم في الإسلام.

إذن يأتي سؤال يطرح نفسه كما يقولون، إذا كانوا يقرون بأن الذي يخلق ويرزق وينعم ويتصرّف ويدبر الأمر هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، إذا كانوا يقرون بذلك فلماذا يعبدون هٰذه الأصنام، إذا كانوا يقرون أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تعطي ولا تمنع.. إلخ، لماذا يعبدونها؟ وهم يقرون لا تخلق ولا تملك ولا ترزق ولا تدبر الأمر، كما هو واضح في الدليل الذي ساقه في القاعدة الأولىٰ.

إذن يأتي سؤال هنا يطرح نفسه كما يقال: لماذا يعبدونها؟ لماذا يتجهون إليها بالسؤال؟ لماذا يكون عندها ويتضرعون إليها ويلحون، إليها بالطلب، ويصرفون لها أنواعا من العبادة، ما السبب؟

يأتي الجواب في هٰذه القاعدة، قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (القاعدة الثانية: أنّهم يقولون: ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القُرْبة والشفاعة.) المشركون يقولون: نحن لم نتَّجه إلىٰ هٰذه الأصنام، ولم ندع هٰذه الأصنام؛ لأنها ترزق أو لأنها تحيي، هٰذه أمور ليست إلا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

إذن لماذا تعبدونها؟ قالوا: نحن لم نعبدها إلَّا للقربة والشفاعة، لم نعبدها إلا للقربة، ما معنىٰ للقربة؟ أي: لتكون وسيلة لنا عند الله، لتكون واسطة لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، نتوسَّط بها إلىٰ الله، نطلب منها هي أن تقرِّبنا إلىٰ الله، هي بنفسها

نعتقد أنها لا تخلق ولا ترزق ولا تملك ولا تدبِّر؛ ولكننا نعبدها من أجل أن تكون واسطة لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ تقرِّبنا إلىٰ الله وتدنينا من الله ﷻ هٰذا هو السبب.

ولهذا قال: (**أنّهم**) أي المشركون (**يقولون: ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القُرْبة والشفاعة**) أعطنا الدليل علىٰ ذلك، ما الدليل علىٰ أنّ المشركين كانوا يعبدون الأصنام لهذا السبب بعينه وهٰذا الغرض بذاته؟ وقد عرفنا أن المصنف التزم في بداية هٰذه القواعد أن يذكر دليلها من القرآن لا يأتي بشيء من نفسه، وإنما يذكر لك الأمر مضموما إليه دليل من القرآن، فهنا ذكر القاعدة الثانية وهي أن المشركين كانوا يقولون: أننا دعونا هٰذه الأصنام ورجوناها وتوجهنا إليها من أجل القربة والشفاعة، أعطنا الدليل علىٰ ذلك؟ قال: (**فدليل القُربة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا﴾**) الآن يأتيك السبب، هل السبب إلا لأنها تخلق، إلا لأنها ترزق، إلا لأنها تحيي وتميت وتدبر الأمر؟ لا، إذن ما هو السبب؟ ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ لا لكونها خالقة ولا لكونها رازقة ولا لكونها مدبرة هٰذه أمور لا تملكها، هم يعتقدون أنها لا تملك شيئا من ذلك.

إذن لماذا عبدتموها؟ لماذا دعوتموها؟ لماذا توجهتم إليها؟ أجابوا قائلين: ﴿إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ﴾ أي: من أجل لأن تقربنا إلىٰ الله تَعَالىٰ، نحن أهل ذنوب وأهل خطايا، وأهل إسراف علىٰ أنفسنا وهٰذه فاضلة وكريمة ولها منزلة عند الله ومكانة، فنحن نعبدها ونتوجه إليها من أجل أن تقرِّبنا إلىٰ الله ﷻ، قال: (**فدليل القُربة قوله تَعَالىٰ: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ﴾ [الزمر:٣].**) سمىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ هٰذه الأمور التي يمارسها هٰؤلاء ويقومون بها سماها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ كفرا بالله جل وعلا؛ اتخاذ الأنداد والوسائط بينهم وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ اتخذوا هٰذه الأشياء من أجل أن تقربهم من الله ﷻ، وسمىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ ذلك كفرا بالله جل وعلا.

إذن هٰذا الأمر الأول الذي أشار إليه المصنف وهو القربة؛ أي أنهم إنما عبدوا هٰذه الأصنام من أجل القربة أي من أجل أن تقربهم من الله ﷻ.

الأمر الثاني وهو الشفاعة ما دليله، أي ما الدليل علىٰ أنهم عبدوها لتكون لهم شافعة عند الله ﷻ، ما الدليل علىٰ ذلك؟ قال: (**ودليل الشفاعة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمۡ وَلَا يَنفَعُهُمۡ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾ [يونس:١٨].**) أي نحن عبدنا هٰذه التي لا تضر ولا تنفع من أجل أن تكون شافعًا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، إذن هٰذه قاعدة مهمة ينبغي أن يفهمها المسلم حتىٰ لا يلبس عليه الأمر، وحتىٰ لا يوقع في الشرك من حيث أراد الحق والهدىٰ، حتىٰ لا يأتيه بعض المبطلين، ويلبسون عليه هٰذه الحقيقة ويوقعون عليه الشرك في الله من حيث أراد لنفسه الخير والهدىٰ، ويقولون له: هٰذه الأصنام وهٰذه المعبودات وهٰذه القباب والأضرحة إنَّما تدعىٰ ويتوجه إليها من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله ﷻ تقربنا إلىٰ الله زلفىٰ، هٰذا الأمر هو الذي لأجله عبد الكفار المشركون الأصنام وتوجهوا إليها بالدعاء والرجاء، ﴿وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِۚ﴾.

ثم انطلق المصنِّف من هٰذا الوضع ليبِّين -رحمة الله عليه- أن الشفاعة نوعان حتىٰ لا يلتبس باب الشفاعة وأمر الشفاعة عند المسلم قال: (**والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفيّة. وشفاعة مثبَتة.**) ما معنىٰ شفاعة منفية وشفاعة مثبتة؟ منفية؛ أي: نفاها الله، مثبتة أي أثبتها الله، القرآن عندما تقرأ الآيات التي جاء فيها ذكر الشفاعة تجد أن القرآن شافعة منفية

وشفاعة مثبتة، إذا كان القرآن فيه شفاعة منفية وشفاعة مثبتة هل نحن نجعل الشفاعات كلها مثبتة؟ أو ننفي ما نفاه الله منها ونثبت ما أثبته.

انتبهوا هنا قاعدة مهمة في باب الشفاعة عندما تقرأ القرآن الكريم تجد أن القرآن الكريم فيه شفاعة منفية نفاها الله وشفاعة مثبتة أثبتها الله، إذن الواجب علينا نحن عباد الله ﷻ أن ننفي ما نفاه الله وأن نثبت ما أثبته الله ﷻ، أما والعياذ بالله أن يثبت الإنسان من الشفاعة ما نفاه الله هٰذا هو الباطل والضلال.

إذن هٰذا قاعدة وأصل مهم في هٰذا الباب أن نميِّز بين الشفاعة المثبتة والشفاعة المنفية، ولأجل هٰذا قال المصنِّف رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَىٰ: (والشفاعة شفاعتان: شفاعة منفيّة. وشفاعة مثبَتة.) شفاعة منفية، أي: نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن وشفاعة مثبتة؛ أي: أثبتها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن.

وإذا كان الأمر كذلك الواجب علينا أن ننفي من الشفاعة ما نفىٰ الله، وأن نثبت من الشفاعة ما أثبت الله، أما من يثبت شفاعة نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ هٰذا عين الضلال والباطل.

قال: (فالشفاعة المنفيّة ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله) الشفاعة المنفية التي نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في القرآن واجب علىٰ كل مسلم أن يعرف الشفاعة التي نفاها الله في القرآن من أجل أن يحذرها وأن يجتنبها وأن لا يقع فيها، لأن الله نفاها وأبطلها ما هي الشفاعة التي نفاها الله في القرآن؟ قال: (ما كانت تُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلاّ الله) لو قال قائل لمخلوق كائنا من كان: أسألك أن تدخلني الجنة، أو أن تجيرني من النار، أو أن تثبتني علىٰ الإيمان، أو أن تعصمني من الخطأ، أو أن تهديني سواء السبيل، أو أن تجنبني مضلات الفتن، أو أن تصلح لي ذريتي، أو أن تمن علي بالزوجة الصالحة، أو تمن علي بالذرية الصالحة، أو أن تكتب لي رزقا وملكا.. إلخ، من قدم هٰذه الطلبات لمخلوق من المخلوقات كائنا من كان مهما علت درجته وبلغت منزلته، ما كانت تطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله؛ هٰذه شفاعة نفاها الله في القرآن، ما الدليل علىٰ أن الله نفاها في القرآن مضىٰ المصنف علىٰ طريقته يذكر الأمر بدليله، قال: (والدليل قوله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم مِّن قَبۡلِ أَن يَأۡتِيَ يَوۡمٞ لَّا بَيۡعٞ فِيهِ وَلَا خُلَّةٞ وَلَا شَفَٰعَةٞۗ وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [البقرة: ٢٥٤].) هنا: ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ نفي أو إثبات؟ نفي ﴿وَلَا شَفَٰعَةٞ﴾ هٰذه نفاها الله، قال: ﴿وَٱلۡكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ هٰذه شفاعة نفاها الله ﷻ وأبطلها، وهي ما يطلب من غير الله، فيما لا يقدر عليه إلا الله، هٰذا ضابط مهم ينبغي أن تحفظه أيها الأخ المسلم، هٰذا ضابط مهم تعرف من خلاله الشفاعة التي نفاها الله في القرآن الكريم، ما يطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، لو وقف رجل أمام ضريح من الأضرحة أو قبة من القباب وقال باكيا راجيا: يا سيدي فلان أو يا فلان أرجو أن تمن علي بالولد والذرية، أنا عقيم.. مثلما يفعل بعض الجاهليين تطوف المرأة حول شجرة وتقول: يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول. يعني قبل أن تتم السنة، يا فحل الفحول تنادي الشجرة، من نادىٰ أو شجرة أو ضريحا أو قبة أو وليا أو نبيا أو ملكا أو غير ذلك يطلب منه الذرية الصالحة، الأنبياء عندما كانوا يطلبون الذرية لأنفسهم، اقرؤوا ذلك في آيات كثيرة في قصة إبراهيم وقصة زكريا، ما كانوا يطلبون إلا من الله، من طلب الذرية أو الزوجة أو الهداية أو الصلاح أو الثبات أو الاستقامة أو كشف الكربات وإزالة الهموم، بعض الناس يخاطب بعض المقبورين، يقول: يا كاشف الغم يا مجيب المركوب، يا مغيث الملهوف، يا جابر الكسير، أنا طريح عند بابك، أنا لائذ بجنابك، إن لم تأخذ بيدي من يأخذ بيدي، ينادي المخلوق ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلۡمُضۡطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكۡشِفُ ٱلسُّوٓءَ

﴿ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل:٦٢]، هٰذه أمور لله ﷻ لا يُلجأ فيها إلا إليه ﷻ، إذن الشفاعة التي نفاها الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- في القرآن الكريم هي ما يُطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ.

إذا كان الناس في الفُلك وتلاطمت بهم الأمواج وأدركهم الغرق، من الذي يوقف الرياح ويهدئ الأمواج ويكسن السفينة؟ الله رب العالمين، والله ﷻ ذكر عن أهل الشرك قال: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥]، يعرفون وهم في تلاطم الأمواج وفي الشدائد أن الذي ينجي من الشدائد هو الله وليست الأصنام، فلهذا كانوا يخلصون لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في الشدة ويشركون في الرخاء، مع أن بعض المشركين في الأزمنة المتأخرة الذين تعلقوا بغير الله من الأنداد والأولياء والقباب حتىٰ في الشدائد وفي الكربات يفزعون إلىٰ تلك المعبودات.

لهٰذا قرأت في بعض الكتب أنَّ جماعة كانوا في سفينة، كان معهم رجل مسن علىٰ التوحيد والفترة فبدأت السفينة تتلاطم، وبدأ كلٌّ يهتف بمعبوده، يا سيدي فلان، يا مولاي فلان أدركني، يا فلان، يناجون المخلوقين، التفت هٰذا الرجل فإذا كل من في السفينة ليس فيهم من يناجي الله، فمد يديه وقال: يا رب أغرق أغرق فما علىٰ السفينة من يعبدك. كلهم يدعون غيرك، المشركون في مثل هٰذه الحالة الذين بُعث فيهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كانوا يلتجئون إلا إلىٰ الله ﷻ في مثل هٰذه الشدة، لهذا قال الله: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

إذن الشفاعة المنفية ما يطلب من غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله.

أذكر لكم الآن مثالا ننظر فيه هل هو من الشفاعة المثبتة أو المنفية، بعض الزوار يأتي إلىٰ المدينة، ومعهم خطابات من بعض الناس من بلده موجهة إلىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، أنا اطلعت علىٰ شيء منها، قرأت كلاما بلفظه يقول: يا رسول الله، يا سيدي، يا مولاي، أنا عبد كسير وفقير ذليل، ومحتاج كذا وأنا لائذ بك، أنا لائذ بك، وملتجئ إليك، فلا ترد طلبي، ولا ترد حاجتي، ثم ذكر حاجته، ذكر أنه يريد طلبات أنا قرأتها بنفسي: يريد زوجة صالحة، ويريد فلة جميلة، ويريد مالا، وذكر أشياء؛ لكن أحفظ منها الزوجة الصالحة والفلة الجميلة ويريد أيضا مالا، هٰذه كتبها يطلبها من النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وفي النهاية قال: وعنواني في المكان الفلاني. أين هٰذا الكاتب لهٰذه الورقة من قوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لنبيه: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ [البقرة:١٨٦]، وهنا انتبه إلىٰ لطيفة عجيبة في هٰذه الآية في سورة البقرة وسور أخرىٰ يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿ يَسْأَلُونَكَ ﴾ ويتبع ذلك بقوله: (قل لهم) كذا لأنه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واسطة في ماذا؟ في إبلاغ الدين ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ﴾ [البقرة:١٨٩]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة:٢٢٢]، ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ﴾ [البقرة:٢٢٠]، إلىٰ غير ذلك من الآيات، هنا في هٰذه الآية قال: ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ﴾ لم يقل: (قل) لا توجد (قل) فإني قريب؛ لأن التوجه إلىٰ الله توجه بلا واسطة أينما تكون في الدنيا واحتجت إلىٰ حاجة سل الله بدون واسطة، لا تبحث عن وسطاء، مباشرة اتجه إلىٰ الله ارفع يديك، أينما كنت في الدنيا حتىٰ لو كنت في كهف مظلم، وفي صخرة مطبقة عليك في مكان مظلم، توجه إليه فإنه يراك رب العالمين ويطلع عليك، ويكتب كربتك ويزيل همك ويرزقك من حيث لا تحتسب، الأمور بيده، والملك ملكه والخلق خلقه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

المثال الذي ذكرته في الخطاب الذي أشرت إليه يندرج تحت أي شفاعة؟ مثبتة أو منفية؟ منفية، ما نخلط الأمور ونقول: دلت الأدلة على أنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ شفيع للناس، لا نخلط الأمور، ونقول: إنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ شفيع للناس، أليس هو عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال لفاطمة بنته: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِينِي مَا شِئْتِ مِنْ مَالِي لاَ أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(١) وقال ذلك لعمه العباس ولعمته صفية ولقرابته، خاطبهم بذلك وناداهم به، صلوات الله وسلامه عليه.

إذن هٰذه شفاعة نفاها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في القرآن، فيجب علينا أن نحذر من الوقوع في مثل هٰذا الأمر الذي نفاه الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في القرآن.

قال: (والشفاعة المثبَتة) أي التي أثبتها الله في القرآن هي التي تطلب من الله، انظر جمال العلم وجمال البيان والنصيحة، الشفاعة المثبتة هي التي تُطلب من الله، والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن، الشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله، الشافع يطلبها من الله؛ لأن الله قال: ﴿قُل لِّلَّهِ ٱلشَّفَٰعَةُ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٤٤]، من أراد أن يشفع لابد أن يأذن الله له، بدون إذن الله لا يكون، قال تعالىٰ: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وفي الآية الأخرىٰ ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، فإذن هي ملك لله وبيده تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وأي أحد كائنا من كان يريد أن يشفع عند الله لابد أن يأذن له الله بالشفاعة، هٰذا أمر، وأيضا من أراد بنفسه أن يكون الأنبياء والملائكة شفعاء عند الله يطلبها منهم، أو من بيده الشفاعة، انتبهوا يطلبها منهم؛ أي يتوجه إليهم في طلبها يناديهم أو يتوجه إلىٰ الله ﷻ؟ الشفاعة بيده فمن أراد بنفسه أن يكون الأنبياء شفعاء له والملائكة عليه أن يقول في طلبه ودعائه: يا رب يا الله -يسأل الله- شفع في أنبياءك، أو يقول: اللّٰهمَّ اجعل نبيك محمد ﷺ شفيعا لي يوم القيامة. وهكذا نقول في دعائنا نسأل الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، نقول: اللّٰهمَّ اجعل نبيك محمد ﷺ شفيعا لنا يوم القيامة، اللّٰهمَّ اجعلنا ممن يشفع لهم نبيك يوم القيامة، نسأل الله جل وعلا، نطلب من الله؛ لأن الشفاعة ملك لله ﷻ، وهي لا تكون إلا بإذنه للشافع ورضاه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ عن المشفوع له، ولا يشفعون إلا لمن ارتضىٰ.

أرأيتم لو أن شخصا كافرا مشركا يعبد الأوثان ومات علىٰ عبادة الأوثان وشُفع له عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ هل تنقذه هٰذه الشفاعة من النار ويخرج بها من النار؟ قال تعالىٰ: ﴿فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ﴾ [المدثر:٤٨]، وفي «صحيح البخاري» قصة عظيمة جدا تهز القلوب هزا رواها الإمام البخاري في «صحيحه»، وهي قصة إبراهيم الخليل مع والده يوم القيامة، ذكرها نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «يَلْقَىٰ إِبْرَاهِيمُ أَبَاهُ آزَرَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَعَلَىٰ وَجْهِ آزَرَ قَتَرَةٌ وَغَبَرَةٌ، فَيَقُولُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ: أَلَمْ أَقُلْ لَكَ لاَ تَعْصِنِي، فَيَقُولُ أَبُوهُ: فَاليَوْمَ لاَ أَعْصِيكَ، فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: يَا رَبِّ إِنَّكَ وَعَدْتَنِي أَنْ لاَ تُخْزِيَنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ، فَأَيُّ خِزْيٍ أَخْزَىٰ مِنْ أَبِي الأَبْعَدِ؟ فَيَقُولُ اللهُ تَعَالَىٰ: إِنِّي حَرَّمْتُ الجَنَّةَ عَلَىٰ الكَافِرِينَ» هٰذا جواب الله لإبراهيم خليل الرَّحمٰن «ثُمَّ يُقَالُ: يَا إِبْرَاهِيمُ، مَا تَحْتَ رِجْلَيْكَ؟ فَيَنْظُرُ، فَإِذَا هُوَ بِذِيخٍ مُلْتَطِخٍ» الذيخ ذكر الضباع ملطخ بدمه «فَيُؤْخَذُ بِقَوَائِمِهِ فَيُلْقَىٰ فِي النَّارِ»(٢) ذكر الله ﷻ عن والد إبراهيم واقرأ في آخر سورة

---

(١) البخاري (ح٢٧٥٣). مسلم (ح٢٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (ح٣٣٥٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

سالم موقع التفريغ للدروس العلمية والبحوث الشرعية www.attafreegh.com

التحـــــريم: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [التحريم:١٠]، ونوح لم يغنِ عن ابنه شيئا؛ لأنه كان كافرا ولم يغن عن زوجته شيئا لأنها كانت كافرة، إبراهيم لم يغن عن أبيه شيئا لأنه كان كافرا، فالشفاعة لا تكون إلا بإذن الله للشافع ورضا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ عن المشفوع له.

واسمع حديثا رواه الإمام مسلم في صحيحه ينفعك الله به، أبو هريرة ﷺ سأل النبي -عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ- سؤالا مهما وعظيما وكبيرا قال: يا رسول الله من أحق الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: «مَنْ قَالَ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، خَالِصًا مِنْ قَلْبِهِ، أَوْ نَفْسِهِ»،[1] وأيضا روىٰ مسلم في صحيحه عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أنه قال: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا»[2]، ولهذا أنبهك هنا أن في موضوع الشفاعة ثلاثة أصول مهمة ينبغي أن تحفظها:

الأصل الأول: أن لا تكون إلَّا بإذن الله.

الأصل الثاني: أن الشفاعة لا تكون إلا عن من رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: من رضي الله قوله وعمله.

الأصل الثالث: أن الله ﷻ لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد.

هٰذه ثلاثة أصول في الشفاعة احفظها ينفعك الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بها، هٰذه الشفاعة بهٰذه الضوابط هي الشفاعة التي أثبتها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في القرآن.

قال المصنف: (**والشفاعة المثبتة هي التي تطلب من الله والشافع مكرم بالشفاعة، والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن**) وجُمع بين هذين الشرطين الرضا والإذن في قوله تعالىٰ: ﴿وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ لَا تُغْنِى شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا إِلَّا مِنۢ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرْضَىٰٓ﴾ [النجم:٢٦]، الإذن للشافع والرضا عن المشفوع له، والله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ لا يرضىٰ إلا عن أهل التوحيد.

---

(١) البخاري (ح٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وليس عند مسلم.

(٢) مسلم (ح١٩٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وهو عند البخاري (ح٦٣٠٤) مختصرا.

الدرس الثالث (٢١/ ١٢/ ١٤٢٨)

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونتوب إليه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له.

وأشهد أن لا إلٰه إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، صلىٰ الله وسلم عليه وعلىٰ آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد.. يلاحظ علىٰ عدد ليس بالقليل من الحجّاج الإصابة بالسّعال، وذلك بعد الجهاد الذي كانوا فيه في أداء هٰذه الطّاعة العظيمة والعبادة الجليلة حج بيت الله الحرام، وإنا لنرجو الله ﷻ أن تكون هٰذه الإصابة وهٰذا التعب وهٰذه المعاناة رفعة في درجات الجميع وسببا لتكفير الخطيئات، وقد جاء عن النبي ﷺ أحاديث عديدة تدلّ علىٰ أن المصائب كفارات، وأن العبد ما أصابه من هم أو غم أو حزن حتىٰ الشوكة يشاكها إلا كفّر بها من خطاياه، وجاء في هٰذا المعنىٰ عنه صلوات الله وسلامه عليه أحاديث كثيرة، ولهذا ينبغي أن يحتسب هٰذا التعب وغيره من التعب في باب التكفير ورفعة الدرجات، وكذلك نسأل الله ﷻ للجميع الصحة والعافية، والأمن والإيمان والسلامة والإسلام، إنه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ ولي التوفيق، لا إلٰه غيره ولا رب سواه.

قال شيخ الإسلام الإمام المجدد محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ:

[المتن]

القاعدة الثالثة: أنّ النبي ﷺ ظهر علىٰ أُناسٍ متفرّقين في عباداتهم، منهم مَن يعبُد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم مَن يعبد الشمس والقمر، وقاتلهم رسول الله ﷺ ولم يفرّق بينهم، والدليل قوله تَعَالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

ودليل الشمس والقمر قوله تَعَالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].

ودليل الملائكة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ أَرْبَابًا ۗ﴾ [آل عمران:٨٠] الآية.

ودليل الأنبياء قوله تَعَالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ﴾ [المائدة:١١٦] الآية.

ودليل الصالحين قوله تَعَالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ﴾ الآية [الإسراء:٥٧].

ودليل الأحجار والأشجار قوله تَعَالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم].

وحديث أبي واقدٍ الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ حُنين ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر، وللمشركين سِدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة فقلنا: يا رسول الله

اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط... الحديث.[١]

[الشرح]

هٰذه القواعد الأربع -كما عرفنا- هي قواعد مهمة للغاية، ويحتاج كل مسلم إلىٰ معرفتها؛ لأن معرفة هٰذه القواعد وضبطها يكون بإذن الله -تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ- صمام أمان للمسلم من الوقوع في شبكة الشرك وحبائل أهله ومصائد الشيطان، وقد جاء في التعوّذات المأثورة عن النبي ﷺ: «أَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ نَفْسِي، وَشَرِّ الشَّيْطَانِ وَشِرْكِهِ»[٢] وفي رواية «وشَرَكه»[٣] أي حبائله وشباكه التي يضعها للناس ليوقعهم في الشرك بالله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، والشرك -كما كنا عرفنا- شبكة وله جانب كثيرة وله مجالات متعددة، ومَن لم يكن في هٰذا الباب علىٰ أصول ثابتة وقواعد راسخة ربما زلت به القدم في أخطر وأعظم باب، ولهذا ينبغي علىٰ كل مسلم أن يكون علىٰ عناية تامَّة ورعاية قوية لـهٰذه القواعد الأربع العظيمة التي قرَّرها الإمام رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ وذكر دلائلها وشواهدها من كتاب الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

كذلك ينبغي أن نعلم أن هٰذه القواعد الأربع ينبني بعضها علىٰ بعض ويترتب بعضها علىٰ بعض، وبفهمها مجموعة تتحقق بإذن الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ السلامة والعافية.

وكنا عرفنا من خلال القاعدة الأولىٰ التي قررها المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ أنّ الكفار الذين بُعث فيهم رسول الله ﷺ كانوا يقرون بأن الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبر للأمور هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وحده، كانوا يقرون بذلك، وذكر الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ الدليل علىٰ ذلك من كتاب الله ﷻ، ولم يُدخلهم ذلك في الإسلام، فعُلم بذلك أن مجرد الإقرار بأنّ الله الخالق الرازق المنعم المتصرف المدبِّر لشؤون الخلائق ليس كافيًا وحده لدخول المرء بالإسلام، ما لم يعبد الله مخلصًا له الدين.

وإذا كان يقر بأنّ الله الخالق الرازق المنعم المتصرف ولا يخلص الدين له تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ فهو مشرك بالله، كافر بالله العظيم، ولهذا قال الله تَعَالىٰ: ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ [يوسف:١٠٦]، ﴿ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ ﴾ أي ربا خالقا رازقا منعما متصرفا مدبرا ﴿ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ ﴾ أي مشركون معه غيره تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في العبادة التي هي حقٌّ خالص لله جل وعلا لا يجوز أن يُجعل لأحد معه فيه شركة.

ثم بعد ذلك ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالىٰ القاعدة الثانية وهي أنّ المشركين الكفار عندما يسألون لماذا تعبدون هٰذه الأوثان وتدعونها من دون الله، وأنتم تقرون أنها ليست خالقة، ولا رازقة، ولا منعمة، ولا متصرِّفة، ولا تملك عطاء ولا منعا ولا خفضا ولا رفعا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا، لماذا تعبدونها وأنتم تقرون أنها لا تملك شيئا من ذلك؟ بل تقرون أنها نفسها مملوكة لله خاضعة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ مربوبة لله ﷻ،

---

(١) الترمذي (ح٢١٨٠) من حديث أبي واقد الليثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال: هٰذا حديث حسن صحيح. وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: صحيح.

(٢) أبو داود (ح٥٠٦٧)، والترمذي (ح٣٣٩٢) من حديث أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وقال الترمذي: هٰذا حديث حسن صحيح. وصححه الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ في السلسلة الصحيحة (ح٢٧٥٣).

(٣) الطبراني في الكبير (ح١٤٦٣٦) من حيث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ولهذا كانوا يحجون ويقولون في تلبيتهم في الحج: لبيك لا شريك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك. هكذا يعتقدون (تملكه) أي هو مملوك لك، هٰذا الشريك الذي جعلناه لك أنت يا الله تملكه، هو مملوك لك، خاضع لك، (وما ملك) هو لا يملك؛ أي لنفسه عطاء أو منعا أو خفضا أو رفعا، فضلا أن يملك ذلك لغيره، هم يقرون بذلك.

فإذا سئلوا قيل لهم: لماذا تعبدونها وتدعونها وتتوجهون إليها وأنتم تعتقدون في قرارة نفوسكم أنها لا تملك، وأنها لا تخلق، وأنها لا ترزق؟ والدليل علىٰ أنهم يقرون بذلك مر معنا في القاعدة السابقة، فإذن لماذا تعبدونها؟ ماذا يقولون؟ يقولون: نحن نعبدها ونتوجه إليها لطلب القربة والشفاعة؛ (لطلب القربة) أي من أجل أن تقربنا إلىٰ الله، نحن بعداء عن الله بالذنوب والمعاصي والخطايا والتفريط، فنحن نتوجه إليها لا لشيء إلا من أجل أن تقربانا إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، من أجل أن تكون واسطة بيننا وبين الله، من أجل أن تكون شفيعا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، وذكر المصنف الدليل علىٰ ذلك وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ﴾ [الزمر:٣]، وذكر أيضا قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ [يونس:١٨]؛ أي نحن نعبد هٰذا الذي لا يضر ولا ينفع لا لشيء إلا لأجل أن يكون شفيعا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

إذن القاعدة الأولىٰ أن الكفار كانوا يقرُّون بأن هٰذه الأصنام لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت ولا تعطي ولا تمنع ولا تخفض ولا ترفع.. إلىٰ آخره، ولم يدخلهم هٰذا الإقرار بالإسلام لأنهم لم يخلصوا العبادة لله.

والشيء الثاني أنّ هٰؤلاء عندما يسألون لماذا تعبدونها وأنتم تقرون أنها لا تملك شيئا ولا تخلق ولا ترزق، يقولون نحن نعبدها وندعوها ونتوجه إليها من أجل أن تقربنا إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ زلفىٰ، ومن أجل أن تكون شفيعا لنا عند الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

هٰذه الممارسة التي يفعلها المشركون، والتي هٰذه خلاصتها ماذا تسمىٰ في شرع الإسلام؟ ماذا تسمىٰ هٰذه الممارسة في شرع الإسلام وفي دين الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ؟ هل هم معذورون في هٰذا التوجيه الذي ذكروه؟ قالوا: نحن لا ندعوها لأننا نعتقد فيها أنها خالقة رازقة؛ بل ندعوها لأنجل أن تقربنا إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ زلفىٰ، هل هٰذا مخوّلا ومسوغا لإعفائهم من تبعة ذلك العمل وتلك الممارسة؟

حاشا وكلا؛ بل هم بذلك كفار مشركون، ولهذا قاتلهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ واستباح أموالهم ودماءهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].

فإذن هٰذه القاعدة الأولىٰ والقاعدة الثانية، يأتي بعد ذلك قاعدة اثلة مهمة جدا وهي تنبني علىٰ القاعدتين السابقتين، ألا وهي تأتي هٰذه القاعدة أي الثالثة جوابا علىٰ تساؤل: هل الشرك الذي ذمه الله وحذر منه وعاب أهله وتوعّدهم وتهدّدهم، هل هو خاص بمن عبد صنما؟ أو توجه إلىٰ حجر، هل هو

خاص بذلك؟ أو أنه شامل لكل ما عُبد من دون الله، أيا كان ومهما كانت صفته؟

هٰذه قاعدة مهمة في هٰذا الباب، لماذا؟ لأن بعض من ابتلوا بالباطل والتوجه لغير الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ بالدعاء والرجاء والطلب والسؤال وإنزال الحاجات والطلبات والرغبات، إذا تليت عليه مثل هٰذه الآيات لوعظه وتنبيه وتذكيره وتحذيره مما هو مما عليه من ضلال وباطل ماذا يقول؟ يقول: هٰذه الآيات التي تتلىٰ في القرآن تختص بمن توجه إلىٰ حجر وتوجه إلىٰ شجر، أما نحن لم نتوجه لا إلىٰ حجر ولا إلىٰ شجر مثل هٰؤلاء المشركين، نحن توجهنا إلىٰ أولياء صالحين، أو إلىٰ أولياء مقربين، أو إلىٰ ملائكة، نحن لم نتوجه إلىٰ شجر وحجر، فكيف تتلىٰ هٰذه الآيات علينا، ونوعظ بهٰذه الآيات وهي لا تتناول العمل الذي نقوم به؛ لأن الآيات تتعلق بمن عبد الأصنام، يقولون هكذا: هٰذه الآيات تتعلق بمن عبد الأصنام اللات والعزىٰ ومناة وهبل.. إلىٰ آخره. أما الذي يتوجه إلىٰ ولي من الأولياء أو صالح من الصالحين أو نبي من الأنبياء أو نحو ذلك، هٰذه الآيات لا تتناوله ولا علاقة لها به، هكذا يقولون.

فهل هٰذا الزعم زعم صحيح؟ أم هو زعم باطل فاسد أودىٰ بأصحابه إلىٰ دركة الشرك هلكة الباطل والعياذ بالله.

فتأتي القاعدة الثالثة عند المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ ليرسي هٰذا الأمر ويجلّيه وزيل الغبش الذي قد يصاب به بعض الناس ويبتلىٰ به بعض الناس، فيدخلون في وحل الشرك وشبكة الباطل من حيث يظنون أنهم لم يقعوا في هٰذه الهوة السحيقة ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١]، لا يشعر أنه وقع في هٰذه الهوة السحيقة والعياذ بالله، فتأتي هٰذه القاعدة لتجلي هٰذا الأمر.

ولهذا ينبغي أن نرعي هٰذه القاعدة بالنا اهتمامنا وأن نحسن فهمها وضبطها لأنها مهمة جدا في هٰذا الباب.

يقول رَحِمَهُ اللَّهُ في القاعدة الثالثة: (**أنّ النبي ﷺ ظهر علىٰ أُناسٍ متفرّقين في عباداتهم**) ما معنىٰ (**متفرّقين في عباداتهم**)؟ أي: لم تكن عباداتهم مختصة بمعبودات معينة، مثل الأحجار أو الأصنام، لم تكن عباداتهم مختصة بذلك، أبدا؛ بل كانوا متفرقين في عباداتهم يعبدون أشياء كثيرة جدا، ما هي هٰذه الأشياء؟ فصّل الشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ، ثم ذكر علىٰ كل ما ذكره من تفصيل ذكر الدليل عليه من القرآن، قال: (**منهم مَن يعبُد الملائكة، ومنهم من يعبد الأنبياء والصَّالحين، ومنهم من يعبد الأحجار والأشجار، ومنهم مَن يعبد الشمس والقمر**).

إذن النبي ﷺ بُعث في أقوام مشركين وشركهم ليس منحصرا في نوع معين من الشرك كعبادة الأصنام؛ بل إن شرك من بُعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ شرك متنوع والأبواب التي سلكها هٰؤلاء المشركون أبواب متفرِّقة: منهم من يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء، منهم من يعبد الأولياء الصالحين، منهم من يعبد الأحجار والأشجار والأضرحة.. ونحو ذلك، وكلُّ هٰؤلاء ظهر عليهم النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ معلنًا دعوة التوحيد صلوات الله وسلامه عليه والدعوة إلىٰ الإخلاص لله تَبَارَكَ

وَتَعَالىٰ ونبذ الشرك واطِّراحه أيا كانت صفته وكان نوعه.

فهٰذه القاعدة تأتي جوابا وإزالة لتلك الشبهة التي قد يروِّجها بعض أهل الباطل، وتقرير القاعدة أنّ من ظهر عليهم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وبُعث فيهم كانوا متفرِّقين في العبادة، منهم يعبد الملائكة، منهم من يعبد الأنبياء والصَّالحين، منهم من يعبد الأشجار والأحجار، منهم من يعبد الشمس والقمر، وتقول هنا: هات الدَّليل علىٰ ذلك. فيأتي المصنف رَحِمَهُ اللَّهُ بالدليل علىٰ كل ذلك من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ.

أولا ما الدليل علىٰ أن منهم من كان يعبد الملائكة؟ أعطنا الدليل علىٰ أن من هٰؤلاء من كان يعبد ملائكة الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ المقربين؟ قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**والدَّليل قوله تَعَالىٰ:** ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩].) هٰذا فيه أولا استشهاد لقول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: (**وقاتلهم رسول الله**) أي أجمعين بأنواع الشرك المختلفة التي كانوا عليها، فهؤلاء كلهم قاتلهم، لم يفرق عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ بين من عبد حجرا أو عبد نبيًّا كعيسىٰ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، أو عبد ملكا من الملائكة كجبريل أو غيرهم من الملائكة عليهم السلام،لم يفرق بينهم، لا هٰؤلاء ولا هٰؤلاء، كلُّهم يشملهم قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ قاتلهم النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أجمعين دعاهم إلىٰ هٰذا الإسلام وأرسل البعوث وأرسل الرسل، ودعا هٰؤلاء دعا الذين يعبدون الملائكة، ودعا الذين يعبدون النجوم، ودعا الذين يعبدون الأنبياء، ودعا الذين يعبدون الأصنام، كل أولئك دعاهم النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ إلىٰ نبذ هٰذا الشرك وإلىٰ إخلاص العبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

ثم بدأ يسوق الأدلة دليلا دليلا علىٰ ما ذكره سابقا من تفرق المشركين وتنوع شركهم، قال: (**ودليل الشمس والقمر**)، قوله: (**ودليل الشمس والقمر**) أي والدليل علىٰ أن من الناس من كان يعبد الشمس والقمر ممن ظهر عليهم النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ وبعث فيهم الدليل علىٰ ذلك قوله الله تَعَالىٰ: (﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ۚ لَا تَسْجُدُوا۟ لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَٱسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧].) لا تسجدوا للشمس ولا للقمر لأن هناك من كان يعبد الشمس ومن يعبد القمر؛ بل إن من رعاية نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ للتوحيد وحفاظه لجنابه وسدِّه صلوات الله وسلامه عليه لذرائع الشرك نهىٰ أمة الإسلام صلوات الله وسلامه عليه أن يصلُّوا لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ مخلصين عند وقت طلوع الشمس ووقت غروبها؛ لأن هٰذا الوقت كان عُبَّاد الشمس يتحرون عبادتها فيه عند أول طلوع أول طلوع الشمس وعند وقت الغروب، عباد الشمس كانوا يتحرون هذين الوقتين، فيعبدون الشمس في هذين الوقتين، ولهذا جاء النهي الغليظ والمؤكد عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ من أن نصلي لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ مخلصين في هذين الوقتين، وذكر عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أنَّ الشَّمسَ «**تَطْلُعُ بَيْنَ قَرْنَيْ شَيْطَانٍ**»(١)، وهٰذا فيه أنَّ الشيطان له فتنة في هٰذا الوقت لصرف القلوب عن التوحيد إلىٰ الشرك، والتعلق بهٰذه المخلوقات الكبيرة البديعة العجيبة العظيمة التي خلقها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ عندما تضعف

---

(١) البخاري (ح٣٢٧٣)، ومسلم (ح٦١٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

بعض القلوب عن راسخ الإيمان وعميق التوحيد قد تتعلَّق بمثل هٰذه المخلوقات الكبار، وتلجأ إليها فتدهشها الشمس بغروبها وطلوعها، فتتوجه إليها بحاجاتها ورغباتها، فقطع النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ الطريق وسد ذريعة الشرك، ونهىٰ أن تُتحرَّىٰ العابدة في هذي الوقتين؛ وقت طلوع الشمس ووقت غروبها ولو كان الإنسان لا يقصد بعبادته إلا وجه الله مخلصا له نهاه النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عن العبادة في هذين الوقتين.

وجاء عنه في ذلك أحاديث كثيرة لماذا؟ كل ذلك محافظة علىٰ التوحيد وصيانة علىٰ جنابه، وسد للذرائع التي تفضي إلىٰ الشرك الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

هٰذا إذن من الدَّلائل والشواهد البينات أن من بُعث فيهم صلوات الله وسلامه عليه كان منهم من شركهم بالله عبادة عبادة للشمس والقمر، والنبي ﷺ خشي علىٰ بعض الأمة أن يتلبَّسُوا بشيء من هٰذا الباطل، فكان من صيانته لجناب التوحيد وسده لذرائع الشرك أن نهىٰ الأمة عن عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في هذين الوقتين سدا لذريعة الشرك وأيضا ربَأَ عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ أن يكون فيه شيء من المشابهة ولو في الصورة الظاهرة لعبدة الشَّمس والقمر عبدة هٰذه المخلوقات، فنهىٰ صلوات الله وسلامه عليه عن العبادة في هذين الوقتين صيانة للتوحيد وحفاظا لجنابه وسدًّا لذرائع الشرك والباطل.

إذن هٰذا دليل ساقه المصنِّف من القرآن الكريم شاهدا علىٰ أن من بعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ كان منهم من يعبد الشمس والقمر.

ما الدليل علىٰ أنّ منهم من كان يعبد الملائكة، قال: (ودليل الملائكة قوله تَعَالىٰ: ﴿وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيِّينَ أَرْبَابًا﴾ [آل عمران:٨٠].) أي من دون الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، فهٰذا شاهد ودليل علىٰ أن من الناس من اتخذ الملائكة أربابا وعبدوا الملائكة مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ودعوهم وسألوهم وعرضوا عليهم حاجاتهم وطلباتهم، فكان من الناس من عبد الملائكة، والملائكة جُند مكرمون وعباد مسخَّرون، لا يستحقون من العبادة ولا مقدار ذرة، ولهذا في سياق إبطال الشِّرك في القرآن الكريم في سورة سبأ ذكر الله ﷻ ضعف الملائكة، مبينا جل وعلا أن الملائكة مع ضخامة أجسامها وقوتها وعظم قدرتها التي منحها الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ إياها هي ضعيفة مخلوقة مربوبة لا تستحق من العبادة شيئا.

وتأمل هٰذا المعنىٰ العظيم فالآيات الواردة للإبطال الشرك في سورة سبأ، وهي قول الله تَعَالىٰ: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أي الملائكة ﴿قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ:٢٢-٢٣].

يفسر هٰذه الآية قول نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في الحديث الصحيح: «إذا تكلم الله بالوحي خرت

الملائكة صعقة خضعانا لقوله»[1] هٰذه الملائكة الضخمة الأجسام العظيمة القوة والقدرة، إذا تكلم الله بالوحي خرت صعقة يغشىٰ عليها ويغمىٰ عليها خضعانا لقوله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، فهي مخلوقة ضعيفة مربوب لله، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، ولا يستحقون من العبادة أي شيء، ولهذا قال الله ﷻ في شأن الملائكة: ﴿وَمَن يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّيٓ إِلَٰهٌ مِّن دُونِهِۦ فَذَٰلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء:٢٩]، الملائكة لا يقولون ذلك، الملائكة عباد مكرمون يعبدون الله ﷻ الليل والنهار ولا يفترون، لا يعصون ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، هٰذا شأن الملائكة، وقد وُجد في الناس من عبدهم، من توجه إليهم في طلباته ورغباته، وجعلهم واسطة بينه وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في عرض حاجاته، فبعث النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لإبطال هٰذا الشرك، اتخاذ الملائكة أربابا وأندادا وشركاء لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في العبادة.

ثم ذكر رَحِمَهُ اللَّهُ تعالىٰ دليل الأنبياء؛ أي الدليل علىٰ أن من المشركين الذين بعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من كان يعبد الأنبياء، فذكر قول الله تعالىٰ: (﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾ [المائدة:١١٦].) إذن كان من المشركين الذين بعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من كان يعبد الأنبياء من دون الله ﷻ مثل من كانوا يعبدون عيسىٰ ويتوجهون إليه بالدعاء والطلب والرغبات، ويعبدون أمه، وأمه ليست نبية وإنما هي صالحة من الصالحات ومن خيار نساء العالمين، فكانوا يعبدون الأنبياء ويعبدون الصالحين، الأنبياء مثل عيسىٰ والصَّالحين مثل أمه كانوا يعبدونها من دون الله وجعلوهما شريكا لله قالوا: إن الله ثالث ثلاثة. جعلوهم ثلاثة المستحقين للعبادة: الله ومريم وعيسىٰ، وعبدوا هؤلاء الثلاثة كلهم، عبدوا الله، وعبدوا معه عيسىٰ، وعبدوا معه أمه.

فإذن من بعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منهم من كان شركه عبادة للأنبياء، وعبادة للصالحين.

ثم قال رَحِمَهُ اللَّهُ: (**ودليل الصالحين قوله تَعَالىٰ:** ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ ۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء:٥٧].) هٰذه الآية دليل واضح علىٰ أن من بُعث فيهم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ منهم من كان يعبد الصَّالحين من دون الله ﷻ، وذلك أن معنىٰ الآية ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ تتعلق ببيان حال طائفة من المشركين، واقرأ قبل ذلك الآية التي قبلها وهي قول الله ﷻ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴿٥٦﴾ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ﴾ [الإسراء]، أي أولئك الذين يدعوهم هٰؤلاء المشركون المتخذون الأنداد قوم هداهم الله ﷻ، وعبدوا الله وأخلصوا الدين له جل وعلا، يبتغون إلىٰ ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه، وهٰذه نزلت في قوم من المشركين كانوا يعبدون نفرا من الصالحين، مثل: عزير، ومثل: عيسىٰ، ومثل: بعض الصالحين من عباد الله، فالله ينهاهم

---

(١) لم وهو عند البخاري (ح٤٧٠١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بلفظ: «إِذَا قَضَىٰ اللهُ الأَمْرَ فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتِ المَلاَئِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَانًا لِقَوْلِهِ».

عن هٰذا الشرك بقوله سبحانه: ﴿ أُوْلَٰئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ أي هؤلاء الذين تدعونهم وتعبدون هم أنفسهم عباد لله، خاضعون لله، متذلِّلون بين يدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف:١٢٤] هم عباد الله خاضعون لله ﷻ، عباد لألوهيته، مطيعين له، قائمين بعبادته خاضعين له، يرجون رحمته ويخافون عذابه، فكيف تتوجهون إليهم؟

فالسياق جاء في إنكار الشرك علىٰ قوم من المشركين كانوا عبدون نفرًا من الصالحين، سواءً نفرا من الصالحين من علىٰ قول المفسرين، أو نفرا من الصالحين من الجن؛ لأنَّ الآية قيل- في بعض أقوال أهل العلم: إنها نزلت في قوم من الإنس كانوا يعبدون نفرا من الجن، فأسلم الجنيون وبقي الإنسيون علىٰ عبادتهم، فأنكر الله عليهم هٰذا الشرك قائلا لهم: إن هٰؤلاء الجنيون الذين تعبدونهم من دون الله أسلموا وأخلصوا العبادة لله يرجون رحمة الله ويخافون عذابه، وأنتهم لا تزالون مقيمون علىٰ عبادتهم.

إذن الآية واضحة في إنكار شرك من كان شركه عبادة الصالحين والأولياء، يقال لمن عبد وليا عبد وصالحا: إن هٰذا الذي تعبد وتلجأ إليه هو نفسه عبد لله يرجو الله ويطمع في مغفرة الله ورحمته وإن كان مات، فإن هٰذه الأمور رجاء الرحمة والعبادة وابتغاء الوسيلة انقطعت بموته؛ «**إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ**»(١) لا يستطيع أن يقوم بعبادة، ولا يستطيع أن يقوم بدعاء ولا يستطيع أن يقوم برجاء أو بخوف أو بأي أمر من الأمور التي هي مجال الإنسان للقيام بها في حياته الدنيا، أما إذا مات انقطع عمله لا يستطيع لنفسه ولا أيضا أن يدعو لغيره، ولهذا قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ في «صحيح البخاري» لأم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قال: «**ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ فَأَسْتَغْفِرُ لَكِ**»(٢) أي وأنا علىٰ قيد الحياة استغفرت لك، أما بعد الموت لا يستغفر هو عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأحد ولا أيضا غيره من الذين توفاهم الله ﷻ يستغفرون لأحد، ولهذا قال: «**ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ فَأَسْتَغْفِرُ لَكِ**» أما يستدل به بعض الناس من أن النبي ﷺ قال: «**تعرض علي أعمالكم وأنا ميت حسنها وسيئها فإذا رأيت حسنها حمدت الله وإذا رأيت سيئها استغفرت الله لكم**» هٰذا حديث غير صحيح، فيستدل به بعض الناس ويتركون الحديث الذي في «صحيح البخاري»، الحديث الذي فيه «صحيح البخاري» الذي يقول فيه النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ يقول لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا «**ذَاكِ لَوْ كَانَ وَأَنَا حَيٌّ فَأَسْتَغْفِرُ لَكِ**» أي بعد الموت لا يستغفر عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ لأحد، ولهذا الصحابة بعد موته قالوا كما جاء عن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «**اللَّهُمَّ إِنَّا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِنَبِيِّنَا فَتَسْقِينَا، وَإِنَّا نَتَوَسَّلُ إِلَيْكَ بِعَمِّ نَبِيِّنَا فَاسْقِنَا**»(٣). لماذا؟ والمراد الدعاء، قم يا العباس ادع الله لنا. في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ما كانوا يتوسلون بالعباس أو بغيره كانوا يتوسلون بدعاء النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يدعو لهم هو صلوات الله وسلامه عليه ويؤمِّنون علىٰ دعائه، أما بعد موته انقطع هٰذا الأمر لقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ

---

(١) مسلم (ح١٦٣١) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) البخاري (ح٥٦٦٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

(٣) البخاري (ح١٠١٠) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَالسَّلاَمُ: «إِذَا مَاتَ الْإِنْسَانُ انْقَطَعَ عَنْهُ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ»[١]. الشاهد أن هٰذا دليل الصاحين.

ما دليل الأشجار والأحجار؟ قال قوله تَعَالىٰ: (ودليل الأحجار والأشجار قوله تَعَالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم].) هٰذه معبودات كان يعبدها المشركون ويتوجهون إليها، اللات ما هي؟ والعزىٰ ما هي؟ ومناة الثالثة الأخرىٰ ما هي؟

اللَّات هٰذه صخرة وقيل قبر ،جاء هٰذا المعنىٰ عن ابن عباس[٢] وغيره لرجل كان يلتُّ السويق، يعني يعجنه ويهيئه ويخبزه ويجهزه وضيافة وقِرىٰ للحجاج، وكان معروفا بذلك، رجل عُرف بهٰذا يعجن السويق ويهيئه يخبزه ويقدمه ضيافة للحجاج الذين يتوافدون إلىٰ مكة، فكان يصنع ذلك، لما مات بنوا علىٰ قبره وعبدوه، أخذوا يجعلونه واسطة، قالوا: لأن هٰذا رجل معروف بهٰذا الكرم وهٰذه الضيافة، فعبدوا قبره.

وقيل: عبدوا الصخرة التي كان يعجن عليها السَّويق، قيل: هٰذه الصخرة فاضلة سنوات طويلة يعجن عليها السويق ما أجمل أن تكون وواسطة بيننا وبين الله، سنوات طويلة والسويق يعجن عليها ويقدم للحجاج ضيافة لهم؛ إذن هٰذه الصخرة فاضلة مميزة فلها خاصة، فما أجمل أن نجعلها واسطة بيننا وبين الله، فجعلوها واسطة.

وقيل: إنهم جعلوا قبره واسطة بينهم بين الله ﷻ يأتون عند القبر ويعرضون الحاجات والرغبات، ويتحرون الدعاء عند قبره، أو عند هٰذه الصخرة.

والعزىٰ شجرة كان يقصدها المشركون، وكان يزيد الشرك التعلق بهٰذه الشجرة أن جنية كانت مختفية، وإذا جاؤوا عند هٰذه الشجرة خاطبته الجنية، فيخدعون بذلك؛ لأن الشجر يعرف أنه لا يخاطب الناس فيخدعون بذلك ويستدرجون، فتخاطبهم الجنية وتذكر لهم أمورا، وربما سألوها عن مفقود أو ضائع فأشارت إلىٰ مكانه، أو دلتهم عن موضعه ففتنوا، وصاروا يتوافدون عليها من الأنحاء العديدة يعبدون هٰذه الشجرة، حتىٰ بعث النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ إليها خالد بن الوليد فقطع الشجرة وقتل الجنية، كما جاء في كتب السير والأخبار.

العزىٰ شجرة كان يعبدها المشركون، ولا يزال مثل هٰذا الشرك يوجد، من الناس من يتعلقون بأشجار، ويعتقون أنها أشجار مباركة، ولهذا يذهبون يعلقون عليها الخيوط ويتمسحون بها، يضع صدره علىٰ الشجرة يطلب منها بركة، يطوف علىٰ الشجرة.

كان قديما وقد أدرك شيئا من ذلك ورآه المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ كانوا يطوفون علىٰ شجرة النساء تذهب وتطوف علىٰ الشجرة، المرأة التي لا تلد تذهب وتطوف علىٰ الشجرة وتقول: يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول. تنادي الشجرة، ما تنجب، أخذت سنوات ما تنجب، فتقول لها النساء هناك شجرة في المكان

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) البخاري (ح٤٨٥٩) من حديث عبد الله ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا.

الفلاني مباركة اذهبي وطوفي بها أشواطا واطلبي منها، شجرة مباركة، وربما قالوا لها: فلانة جربت وفلانة فعلت.. وهكذا يُستدرج الناس إلىٰ الشرك والباطل والعياذ بالله، فكُنَّ يذهبن إلىٰ تلك الشجرة ويطفن عليها ويقلن: يا فحل الفحول أريد ولدا قبل الحول.

وقد قال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في الحديث الصحيح: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَىٰ ذِي الخَلَصَةِ»[1] ذو الخلصة صنم ووثن من الأوثان، (تضطرب أليات النساء) يعني تضرب إليات بعضهم بعضا من شدة تزاحمهم علىٰ الطواف علىٰ ذي الخلصة، هٰذا فيه إشارة علىٰ كثرة النساء الطائفات علىٰ ذي الخلصة. وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»[2] والأحاديث في هٰذا الباب كثيرة وثابتة عن نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ، وقال عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» انتبه هنا، من كان قبلنا فيهم من عبد الملائكة وفيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الأولياء، وفيهم من عبد الأشجار، فيهم من عبد الصالحين، ونبينا قال: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»[3].

فإذن هٰذه أمور خطيرة جدًّا، النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ عندما قال لنا: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ» هل قالها مجرد معلومة نسمعها ونعرفها أو من أجل أن نحذر ونحتاط لأنفسنا؟ ونخاف من هٰذا الباطل الذي كان عليه من قبلنا ونحذر علىٰ المجانبة منه والبعد عنه، خليل الرحمٰن إبراهيم عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال في دعائه: ﴿وَٱجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعْبُدَ ٱلْأَصْنَامَ ﴿٣٥﴾ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُۥ مِنِّي ۖ وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [إبراهيم].

إذن هٰذا دليل الأشجار والأحجار فقال: (ودليل الأحجار والأشجار قوله تَعَالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ﴾ [النجم].).

مناة هٰذا أيضا حجر وصنم من الأصنام كان يعبده أهل الجاهلية، وكان بين مكة والمدينة.

ثم ختم بحديث أبي واقد الليثي، وهٰذا الحديث عظيم جدًّا -يا إخواني- في هٰذا الباب، يبين لنا هٰذا الحديث خطورة حال الإنسان عندما يكون حديث عهد بإسلام أو تكون معلوماته الإسلامية ضعيفة، أو يكون نشأ في مجتمع تكثر فيه الجاهلية، هنا فيه خطورة يبيِّنها وجلّيها لنا هٰذا الحديث.

قال أبو واقد الليثي (خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ حُنين ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر) هٰذا اعتذار قدمه رضي الله عنه من المقالة التي قالوها، قال: (ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر) يعني عهدنا بالكفر كان قريبا، كنا علىٰ الكفر من وقت قريب، الذي علىٰ كفر من وقت قريب معلوماته الشرعية عن الإسلام وعن التوحيد وعن تفاصيل

---

(١) البخاري (ح٧١١٦)، ومسلم(٢٩٠٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أبو داود (٤٢٥٢ح) واللفظ له، وابن ماجه (ح٣٩٥٢) من حديث ثوبان رضي الله عنه. وقال الألباني رحمه الله: صحيح.

(٣) البخاري (ح٧٣٢٠)، ومسلم (ح٢٦٦٩) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

الشرع تكون ضعيفة، وربما في الوقت نفسه ربما يكون أيضا بعض الأمور التي كان عليها في الجاهلية لم يتبين له ولم يظهر له أنها مصادمة للإسلام الذي اعتنقه ودخل فيه.

ومثل هٰذا الأمر من ينشأ في مجتمعات تكثر فيها الجاهلية ويكثر فيها دعاة الضلال وأئمة الباطل، ربما لا يعرف بعض الأمور ولا يفهمها ولا يدركها ويقع في الشرك والضلال من حيث يظن أنه علىٰ التوحيد والإسلام، يقول أبو واقد: (خرجنا مع النبي ﷺ إلىٰ حُنين) انظر من هم هٰؤلاء الرجال، هؤلاء الرجال خرجوا مع النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بائعين أنفسهم في سبيل الله معهم السيوف يقاتلون منهم من سيقتل ويموت في سبيل الله، خرجوا مقاتلين في سبيل لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، ثم يقولون هٰذه المقالة التي بُيِّنت في الحديث، قال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ونحنُ حدثاء عهدٍ بكفر، وللمشركين سِدرة يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم) جاء في بعض الروايات (فمررنا بسدرة) وهم في الطريق، مروا بسدرة أي مروا بشجرة، لمن هٰذه الشجرة؟ للمشركين ماذا يفعلون عندها قال: (يعكفون عندها وينوطون بها أسلحتهم) هٰذا نوع من الشرك، الشرك من أنواعه ومجالاته العكوف عند القبر أو عند الشجرة أو عند المكان الذي يعبد ويقصد ويتوجه إليه، يعكف عنده أي يبقىٰ مدة طويلة ساكنا خاضعا متذللا راهبا، هٰذه عبادة، ﴿وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِي ٱلْمَسَٰجِدِ﴾ [البقرة:١٨٧]، العكوف عبادة لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ. يعكفون عندها، يبقىٰ قائما ساعة ساعتين أقل أو أكثر ساكنا خاشعا، ربما لا يتكلم بكلمة، فقط مجرد وقوف، وهو يعتقد في قرارة نفسه أن عكوفه هذا يجلب له بركة؛ لأن هٰذه الشجرة مباركة فبركتها تنعكس عليه وتنجذب إليه، يعود إليه نصيب منها، فيعكفون عندها هم بأشخاصهم، وأيضا (وينوطون بها أسلحتهم) يعلقون أسلحتهم؛ لأنهم يعتقدون أن السلاح إذا عُلِّق علىٰ هٰذه الشجرة المباركة بزعمهم بورك السلاح وأصبح قويا في القتال فكانوا يعتقدون هٰذه العقائد، (يقال لها: ذات أنواط،) سموها بهٰذا الإسم لكثرة ما يعلقون عليها من أسلحتهم رجاء البركة وطلب البركة (وينوطون بها أسلحتهم).

قال: (فمررنا بسدرة) أي مروا بسدرة أخرىٰ غير تلك (فقلنا: يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط) يعني خصص لنا شجرة معينة نمارس عندها مثل هٰذه الممارسة، نعكف ونعلق السلاح من أجل ماذا العكوف ومن أجل ماذا يعلق السلاح؟ كانوا يفعلون ذلك في الجاهلية طلب البركة، فقالوا: (اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط)، فقال النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «سُبْحَانَ اللهِ هَذَا كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَىٰ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨] وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتَرْكَبُنَّ سُنَّةَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ»[1].

أنظر يا أخي، أنظر هٰذا النصح العظيم والتحذير البالغ من نبينا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، وخذ نفسك مأخذ الحزم والحيطة والحذر، «اللهُ أَكْبَرُ إِنَّهَا السُّنَنُ هَذَا كَمَا قَالَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ لِمُوسَىٰ ﴿ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾»[2] «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) صحيح ابن حبان (ح٦٧٠٢) من حديث أبي واقد اللَّيثي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ»[١]؛ بل جاء عنه عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ في بعض الروايات في غير هٰذا الحديث: «حَتَّىٰ إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَىٰ أُمَّهُ عَلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ»[٢] يجب علىٰ الإنسان أن يحذر خاصة في زماننا هٰذا، الزمان هٰذا انفتح علىٰ الناس انفتاحا عجيبا حال المجتمعات الكافرة وأمم الكفر، وأصبح الناس من خلال القنوات الفضائية ومن خلال شبكة العنكبوت الانترنت والإنسان جالس في بيته، والمرأة جالسة في بيتها ينفتح عليها العالم كله، وترىٰ وثنية الوثنيين وشرك المشركين وضلال المضلين، وشبه المبطلين، ويكون هٰذا المسكين الذي ينظر هٰذا كله بضاعته الشرعية وعلمه بالتوحيد علم ضعيف محدود، ثم ينتظر أو يرجو لنفسه سلامة:

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تمشي علىٰ اليبس

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له: ... إياك إياك أن تبتل بالماء

الشاهد أن الأمر جد خطير، وأن الأمر كما قرر الشيخ رحمة الله عليه أن الشرك الذي كان عليه المشركين في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ليس عبادة أصنام فقط، وبعض الناس الذي عندما يقرأ الآيات التي فيها التحذير من الشرك ينصبّ في ذهنه فقط -وهٰذا من الشبه التي أدرجت علىٰ الناس- اللات والعزىٰ ومناة، ويقول: الحمد لله هٰذه الأصنام ليست موجودة وحُطمت في زمن النبي عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ ولا يوجد شرك، بل بعض الناس وجد من أئمة الضلال أنه قال: أمة محمد إلىٰ قيام الساعة لن يوجد فيها شرك، هٰذا قيل وكتب في بعض الكتب، ولبّس علىٰ بعض الجهال فيه، وأصبح بعض الجهال يمارسون ممارسات من الشرك ويقول لهم هٰؤلاء: الشرك أمة محمد معصومة منه، وربما استدلوا ببعض الأحادي ووضعوها في غير بابها، مثل حديث: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيِسَ أَنْ يَعْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ»[٣] يستدلون بهٰذا الحديث ويتركون أحاديث محكمة صريحة في أن العبادة ستوجد مثل «وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَلْحَقَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي بِالْمُشْرِكِينَ، وَحَتَّىٰ تَعْبُدَ قَبَائِلُ مِنْ أُمَّتِي الْأَوْثَانَ»[٤] هل أوضح من هٰذا شيء؟ ومثل قوله عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا»[٥]، ونحن عرفنا من كان قبلنا بهٰذه الآيات البينات فيهم من عبد الأنبياء، وفيهم من عبد الصالحين، وفيهم من عبد الملائكة.

ولهذا تقريرا لهٰذا الأمر أعيد عليكم: لو قيل هل سيوجد في هٰذه الأمة من سيعبد الملائكة وسيعبد الأنبياء وسيعبد الصالحين وسيعبد الأشجار وسيعبد الشمس وسيعبد القمر، هل سيوجد من يفعل ذلك

---

(١) تقدم تخريجه.

(٢) الترمذي (ح٢٦٤١) من حديث عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وقال الشيخ الألباني رَحِمَهُ اللَّهُ: حسن.

(٣) مسلم (ح٢٨١٢) من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) تقدم تخريجه.

(٥) تقدم تخريجه.

أو لا يوجد؟ يوجد لدليلين:

الدليل الأول: أن هٰذه آيات بينات في القرآن الكريم أن هٰذه الممارسات كانت موجودة في من كان قبلنا.

الدليل الثاني: أن نبينا عَلَيْهِ الصَّلاَةُ وَالسَّلاَمُ قال: «**لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّىٰ لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ**»(١)، وهٰذا لا يعني وجود ذلك أي وجوده في الأمة بأسرها، لا، يوجد في أفراد من الناس، وآحاد من الناس وبعض من يضلون سواء السبيل، يوجد فيهم من ينحرف هٰذا الانحراف، فإذا علمت هٰذا العلم وفهمت هٰذا الفهم ودريت هٰذه الدراية اتق الله ﷻ واحفظ توحيدك وصن إيمانك وابعد نفسك عن الشرك، واسأل ﷻ أن يثبتك عن التوحيد وأن يعيذك من الشرك وأن يحييك مسلما وأن يتوفاك مؤمنا فإنه تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وحده ولي التوفيق والسداد .

(١) تقدم تخريجه.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

[المتن]

القاعدة الرابعة: أنّ مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأوّلين، لأنّ الأوّلين يُشركون في الرخاء ويُخلصون في الشدّة، ومشركو زماننا شركهم دائمٌ في الرخاء والشدّة.

والدليل قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].

تمت وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم.

[الشرح]

ثم ختم هٰذه القواعد الأربع بهٰذه القاعدة العظيمة المهمة حقيقة، وهي قوله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (أنّ مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأوّلين) لماذا؟ قال: (لأنّ الأوّلين يُشركون في الرخاء ويُخلصون في الشدّة) أي وقت الصحة والعافية والأمن والراحة والطمأنينة ونحو ذلك يشركون؛ يعبدون مع الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ الأحجار والأشجار والملائكة.. إلىٰ آخره.

أما وقت الشدة، عندما تشتد الأمور وتعظم الكربات لا يعبدون شيئا من تلك المعبودات؛ بل يتوجهون إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وحده مخلصين له الدين، هكذا كانوا، ما الدليل علىٰ ذلك، قال: (قوله تعالىٰ: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ [العنكبوت:٦٥].) هٰذه حالهم؟ من هم؟ المشركون الأول، إذا ركبوا في الفلك وأتت الرياح العادية وتلاطمت الأمواج وأدركهم الغرق وعظم فيهم الخطب أخلصوا الدين لله، فقط يقولون: يا رب يا رب، لا يناجون اللات ولا هبل ولا غيرها مما كانوا يدعونها في حال الرخاء، فقط يقولون: يا رب يا رب، مخلصين له الدين، إخلاص تام في التوجه والسؤال والطلب، الوسائط كلها تسقط وتذهب، ولا يتعلقون بشيء منها يخلصون الدين لله، والدليل واضح أمامك، ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ ﴾ أي المشركين ﴿دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾ يعني إذا انتهو امن البحر ومشاكل الغرق إلىٰ آخره، وكانوا في البر وطأت أقدامهم البر رجعوا إلىٰ الشرك، بدأوا يناجون اللات والعزىٰ.. إلىٰ آخره، وفي حال الشدة يخلصون لله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ.

ولهذا اقرأ في هٰذا السياق بيان الله ﷻ لهؤلاء أن الله ﷻ قادر عليهم في حال كونهم في البحر وفي حال كونهم في البر، الأمر سواء في قدرته جل وعلا قادر علىٰ إهلاكهم برا وبحرا، فلا فرق بين أن يدرك الإنسان هلاك الله ﷻ سواء كان في البر أو سواء كان في البحر، فيقال للمشرك: إنه كنت تؤمن أنه لا ينجيك في البحر إلا الله، فكذلك لا ينجيك في البر إلا الله؛ لأن الله قادر عليك في البر وفي البحر، فماذا تغني عنك هٰذه الأصنام من الله شيئا سواء كنت في البر أو البحر.

ولهٰذا اقرأ قول الله ﷻ: ﴿ رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٦﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴾ [الإسراء]،

هٰذه حال المشركين قوله: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ أي: ذهب كل من تعلقون به وتدعون وترجون ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ إلا الله، وانتبه للآية ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ تدل هٰذه الآية علىٰ أن المشركين كانوا يعبدون الله ويعبدون معه غيره؛ لكنهم في البحر كل من يعبدونه من دون الله يذهب عن قلوبهم وعن أفكارهم وعن توجهاتهم، فلا يعبدون إلا الله تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ وحده مخلصين له الدين، ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ [الإسراء] الآن وطئت أقدامكم البر وأحسستم بالسلامة والنجاة من كربات وشدة البحر ورجعتم إلىٰ الشرك، هل عندما رجعتم إلىٰ الشرك بعد أن وطئت أقدامكم البر وأحسستم بالسلامة، هل أمنتم أن يخسف الله بكم جانب البر، هل تأمنون من ذلك؟ إذن لماذا تعودون للشرك؟ أمر آخر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ [الإسراء: ٦٨] هل تأمنون من ذلك؟ أي وأنتم في البر فيه احتمالين:

الأول أن يخسف الله بكم جانب البر، الأرض التي تحتكم تنخسف، وتسقطون في هوة من الأرض لا يعلم مداها إلا الله، وتنطبق عليكم الأرض ولا يرىٰ لكم أثر ولا شيء، الله قادر علىٰ كل شيء، وقد أخبر أنه عاقب من عاقب بشيء من ذلك، منهم من خسفنا به الأرض هل تأمنون من ذلك، هٰذا جانب، جانب آخر.

واحتمال آخر ﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي وأنتم في البر أن الله ﷻ يبعث ريح شديدة قوية تحمل الحصباء فيهلككم وأنتم في البر، هٰذا احتمال ثاني ضعوه في بالكم.

أيضا **احتمال ثالث** ذكره الله ﷻ ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ أي: في البحر ﴿فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ﴾[الإسراء: ٦٩].

هٰذه احتمالات ثلاث ذكرها الله لهم:

يحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر خسفا.

ويحتمل أن تأتيكم العقوبة في البر ريحا عاصفة تحمل الحصباء تهلككم.

ويحتمل أيضا أن يعيدكم الله ﷻ فيما بعد إلىٰ البحر في حاجة من حاجاتكم وطلب من طلباتكم ويرسل عليكم وأنتم في البحر قاصفا من الريح فيغرقكم بما كفرتم.

إذن من تخلصون له في الشدة وتشركون معه في الرخاء حقه والواجب عليكم أن تكونوا مخلصين له في الرخاء والشدة؛ لأنكم لستم في أمنة من عقوبته ونقمته لا في البر ولا في البحر، فكان المشركون الأول يشركون في الرخاء و ويخلصون في الشدة.

وأذكر الآن عرضت لذهني أن أحد المشركين كان سبب دخوله في الإسلام والتحاقه بالنبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ هو مثل هٰذه القصة، كانوا في البحر وأدركهم الغرق، وعاينوا الموت، فأخلص الناس في ذلك الموقف لله فقال: نسيتم الآن؟ عكرمة بن أبي جهل قال: لئن لا يخلصني من هٰذا الكرب في هٰذا المكان إلا الله فلا يخلصني منه في البر إلا الله، ثم قال: حق علي لئن كتب لي نجاة لأذهبن إلىٰ محمد ولأبايعنه علىٰ الإسلام، وفعل ذلك نجاه الله وأسلم، وكانت هٰذه عظة له وعبرة في دخوله في الإسلام

ورجوعه للدين.

فإذن أولئك كانوا يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة.

ويقول المصنِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: أما المشركون في زماننا فكانوا فحالهم أنهم يشركون في الرخاء وفي الشدة. ما معنىٰ يشركون في الشدة؟ أي: أن حالهم عندما يركبون في الفلك ويعاينون شدة الغرق ومقاربة الموت يفزعون إلىٰ المعبودات التي تعلقت قلوبهم بها، ففي مثل هٰذه الحال تراهم يقولون مدد يا فلان، أدركنا يا فلان، إن لم تلحقنا في هٰذا من يلحقنا، إن لم تنقذنا من هـٰذا الغرق من الذي ينقذنا، يخاطبون أمواتا، يخاطبون مقبورين، أنا عائذ بك، أنا متجه إليك، أنا في جنابك، أنا أنا.. إلىٰ آخره، في الشدة يفعلون ذلك، وهٰذا شرك ما كان يفعله المشركون في حال الشدة، في الشدة كانوا يخلصون.

ولهذا قرأت في بعض الكتب أن جماعة كانوا في سفينة وأدركهم الغرق، فأخذ كل يهتف بمعبوده، مدد يا فلان، يا شيخ فلان ألحقنا، أدركنا يا فلان، وينادون، كلٌّ ينادي شيخه أو معبوده، فكان فيهم رجل علىٰ فطرة، رجل مسن التفت وإذا كل من علىٰ السفينة لا ينادون إلا هٰذه المبعودات، ليس فيهم من ينادي الله، فمدّ يديه وقال: يا رب أغرق أغرق ما علىٰ السفينة من يعبدك، كل من علىٰ السفينة متجهين إلىٰ غيرك.

قد تتساءل -أيها الأخ الكريم- تقول: لماذا هٰؤلاء يشركون في الرّخاء وفي الشدة، ما السبب؟ يأتيك السؤال لماذا هؤلاء يشركون في الرخاء والشدة؟

أقول لك: إن من وراء ذلك أئمة الضلال وشيوخ الباطل، أئمة الضلال وشيوخ الباطل غرسوا في نفوس هؤلاء التعلق بهم، وقالوا لهم كما في كتب هٰؤلاء واضحا: إذا أدركتك الكربة وعاينت الشدة في أي مكان تكون اهتف باسمي، ستراني بجنبك، آخذ بيدك، حتىٰ بعد موتي لا تنسوا تنادي باسمي أخرج إليك وآخذ بيدك، ويقولون في كتب هٰؤلاء ويعددون من كرامات هٰؤلاء من كراماتهم: أن من كراماته أنه كان ينقذ السفن في البحر من الغرق، ينادون باسمه فينقذ السفين في البحر حتىٰ في أحد الكتب المشهورة في بيان طبقات هٰؤلاء الشيوخ شيوخ الضلال ذكروا أن واحدا منهم -يعددون شيئا من كراماته- أنه كان والعياذ بالله يمسك ويَطلب أن تمسك له الحمارة ليمارس معها الممارسة الباطلة، ثم بعضهم قال له في ذلك لماذا هٰذه الممارسة؟ قال: هٰذه كرامة، رتقْتُ بهذا العمل سفينة كاد يغرق أهلها في البحر، والعوام يسمعون مثل هٰذه القصص ويصدقونها وترسخ في قلوبهم، ثم إذا ركبوا في الفلك يغلظ شركهم علىٰ شرك المشركين الأُول، فتجده إلىٰ أن يغرق إلىٰ أن يموت وهو ينادي شيخه ويهتف باسم شيخه إلىٰ أن يغرق والعياذ بالله علىٰ الشرك بالله.

نسأل الله العافية والسلامة، والله إنها حال مؤلمة جدا ومؤسفة، تجد المسكين يغرق ويموت وهو يهتف باسم شيخه إلىٰ أن تفارق روحه الحياة وهو يظن أن شيخه الآن يأتي الآن يدركه، الآن ينقذه ينادي باسمه إلىٰ أن يغرق لا يقول: يا الله، يموت مشركا لا يعبد الله ولا يخلص لله حتىٰ في شدته.

فذكر رحمة الله عليه أن شرك المشركين أغلظ من شرك أولئك من جهة أن أولئك كانوا يشركون في

الرخاء ولا يشركون في الشدة، وأن هٰؤلاء يشركون في الرخاء ويشركون -والعياذ بالله- في الشدة شركا أغلظ من شرك المشركين الأوائل.

وهٰذه المسائل والتوسُّع فيها والرد علىٰ الشبه التي يطرحها أهل الشرك والباطل توسع فيها رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ في كتاب له معروف اسمه «كشف الشبهات»، كتاب مهم جدا لا يستغني عنه طالب العلم، وذكر فيه هٰذه القواعد مفصلة تفصيلا أوسع من هنا، وأيضا ذكر أصولا أخرىٰ وذكر أيضا تقعيدات وتأصيلات يحتاج إليها طالب العلم في كشف شبهات أهل الشرك الباطل، ثم بعد ذلك ذكر شبهات تفصيلية يستدل بها هٰؤلاء في كتابه العظيم المبارك الذي سماه رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ «كشف الشبهات».

فنسأل الله ﷻ أن يجزي هٰذا الإمام خير الجزاء علىٰ هٰذا النصح العظيم والبيان الموفَّق والإيضاح للتوحيد والتحذير من الشرك الذي كان شغله الشاغل رحمة الله عليه في حياته فنفع الله ﷻ بدعوته نفعا عظيما، ولا يزال الناس مع مر الأيام يستفيدون من هٰذه الدعوة ويستفيدون من هٰذا النصح والآيات والحجج والبينات التي جمعها رَحِمَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالىٰ، فأفاد من ذلك خلق واهتدىٰ خلق وكتب الله ﷻ لهم الهداية.

ويوجد في بعض المجتمعات من يصدون الناس عن دعوته، حتىٰ إن بعضهم قيل له كما ذكر لنا بعضهم ذلك - في تحذيرهم من الشيخ محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللَّهُ-: هو لا يصلي علىٰ النبي، ويأت خائف مسكين، من يريد أن يسمع لشخص لا يصلي علىٰ النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، فيأتي خائف ويسد أذنيه ويحذر غاية الحذر؛ لأنه لا يمكن أن يسمع لشخص لا يصلي علىٰ النبي ﷺ.

ختم هٰذه الرسالة المباركة بقوله: (تمت وصلىٰ الله علىٰ محمد وآله وصحبه وسلم) فجزاه الله خيرا علىٰ ما قدم وأعلىٰ درجاته ورفع موازينه في عليين، وجمعنا أجمعين به وبالصالحين من عباده بأنبيائه وأوليائه في جنات النعيم، وهدانا صراطه المستقيم وأصلح لنا جميعا ديننا الذي هو عصمة أمرنا، وأصلح لنا جميع دنيانا التي فيها معاشنا وأصلح لا آخرتنا التي فيها معادنا.

ونسأله ﷻ أن يجعل الحياة زيادة لنا في كل خير، والموت راحة من كل شر، وأن يغفر لنا ولوالدينا وللمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات الأحياء منهم والأموات.

وأختم بتذكير بأمر سبق أن ذكَّرتُ به ألا وهي أن الهدية نافعة جدا وهي من أعظم أسباب جلب المحبة والمودة، وكثير من الحجَّاج يحرصون جدا علىٰ أمر الهدية، فأنبه الجميع لا تنس وأنت تحرص علىٰ شراء الهدايا أن تشتري لقرابتك أثمن هدية ألا وهي كتب التوحيد التي تعلم الناس الإيمان والتوحيد الذي خلقوا لأجله ووُجدوا لتحقيقه.

أسأل الله أن يهدينا وأن يهدي بنا، وأن يهدي لنا، وأن يجعلنا من عباده المهتدين، وصلىٰ الله وسلم علىٰ نبينا محمد وعلىٰ آله وصحبه أجمعين.

المحتويات

مقدمة المؤلف ٢
القاعدة الأولى: توحيد الربوبية وحده لا يدخل أحدا في الإسلام. ١٧
القاعدة الثانية: دعاء وتوجه المشركين لغير الله كان لطلب القربة والشفاعة ٢٣
القاعدة الثانية: دعاء وتوجه المشركين لغير الله كان لطلب القربة والشفاعة ٢٣
القاعدة الثالثة: المشركين الذين ظهر فيهم النبي ﷺ كانوا يعبدون الملائكة والأنبياء والصالحين والأشجار والأحجار والشمس والقمر. ٢٩
القاعدة الرابعة: مشركو زماننا أشد شركا من مشركي أهل الجاهلية ٤٢